الطبعة السابعة عشر



رواية



في زمن الجاهلية

فهد العودة
FAHAD ALODAH

حب في زمن الجاهلية

رواية

فهد العودة



«سنصير شعباً حين ننسى ما تقول لنا القبيلة»

محمود درويش

إلى الذين لا يفقهون معنى أن تموت في سبيل مَن تحبّ ، وإلى الذين لا يملكون شجاعة أن يدافعوا عن حبهم ، ربما تقضون حياتكم سعداء ، لكن دون معنى!

الطفل الذي كان يلعب مع أصدقائه

كبرَ . . وأصبح رجلاً وحيداً

لنبـدأ منذ النبض الأول ؛ منذُ الإحسـاس الأول ؛ منذُ النظرة والابتسامة الأولى
منذُ أن رأيتكِ تمشين على جسدي وتعبرين إلى القلب من ثقبٍ في صدري ؛ شقَّهُ حضوركِ . .

في بعض الأحيان تبدأ حياتنا عندما نلتقي بأحدهم

**

لم تمرّي كـعـابرة طريق ، كـفـتـاة تحمل مظلتـهـا تحت المطر وهي تهـرول نحـو مـسـكـنهـا ، بل كنتِ رصـاصـة خـرقت كل النوافـذ والصدف ووجوه المارة متجهةً إليّ ، ولم تُداويني بل سحقتيني حـتى الحب والتـمـسـك والموت بكِ ، ولم تكوني منذُ الوهلة الأولى هادئة . . بل كنتِ عنيفة كعاصفةٍ تحطم كل شيء ولا تُخلّف بعدها سوى الحطام .
هكذا كنتِ منذُ التقيتكِ أول مرة ،
كنتِ موجة عارمة التهمتني حد الغرق . .!

لنبدأ منذ الهمسة الأولى . .

لم تكُن سوى ضربة مدوية أردتني أرضاً في نوبة خيال حيث
الموسيقى
ورائحة الياسمين والدفء ورعشة اللقاء والربكة . . ودموع الفرح
والأحلام الوردية التي سمعنا عنها ولم نرَها أبداً
هكذا هو الحب حين تعيشه ، في البدء تشعر بإحساس
لا يستطيع وصفه الكلام في أيّ وقت آخر . .
هكذا كنتِ منذُ الهمسة الأولى
تجاوزتِ اللغة وعبرتِ نحو المستحيل كقصيدة لم تكتب بعد

**

ومنذُ الكلمة الأولى كنتِ إكليلاً طوّقني حباً ودهشةً
واعتصرني حدّ نسيان نفسي والعالم من حولي ،
والنظر إليكِ حد الشهقة
كنتِ يا حبيبتي هالةً وكنتُ أهرب منكِ ولا أذهب إلا إليكِ ،

كيف لا أفر من امرأة سأعجن نفسي رغيفاً لأجل مشاعرها
التي لن تكتفي برجلٍ واحدٍ
وشاعرٍ واحدٍ
وكاتبٍ واحدٍ ؛
باختصار شديد . .
كنتِ عدة نساء وأنا رجلٌ وحيد
لا يستطيع المواجهة . .!
ولكن امرأة مثلكِ لا تُقدر بثمن ؛ ولا تعوض ؛ والموت لأجلها
حياة أخرى أقضيها في إقناع نفسي بأن النساء لا يتشابهن أبداً
وإن تشابهن !
كنتِ امرأة خيالية لا أستطيع النظر إلى وجهها الشعاعي ، الذي
يَدُكُّ حصون وجهي ، التي برزت في ملامحه كلّ أنواع الترقب
والترصد لاستيعاب كل هذا النور .
منذُ ولادة اللقاء الأول . . وأنا في حيرةٍ من دهشتي :
كيف يحدث كل هذا في غضون لحظة ؛
يا الله . . كيف تتعملق وتتعلّق كل هذه المشاعر في أول لقاءٍ مع
امرأة ؛ لا أعرف هل هي ملكٌ لي أم ستذهب حيث الغرباء . . .
كل هذا الزحام والضجيج كان يخفي خلفه شيئاً عظيماً .

الحب لا يجيء إلا وأنت فارغٌ تماماً عن التفكير به . .

ثم يسكنك

فيزاحمك

فيحولك ؛

إلى أن تُصبح كتلة مشاعر

قابلة للمرض والموت

لأي سببٍ تافه !

قصص الحب التي لا تكتمل منذُ البداية تكون أكثر جمالاً من

قصص الحب التي تنتهي ونحن نعيش أوج تفاصيلها ثم نفترق ،

حتماً سيبقى بعدها ضجيجٌ مُزمنٌ يؤذي الذاكرة والقلب .

- لماذا صنفته حباً ؟

- لا أعلم شعورهُ هكذا

- حقاً أنت غبي

- وهل هُناك أكثر غباءً من حبٍ لا يكون !

مـرت السنين يا حـبـيـبـتي ولا زلتُ أنا أنا . . وأنتِ أنتِ ؛ لم يغيرنا شيء

سوى أننا أصبحنا لا نرتدي الأمل كما كنا نفعل دائماً ، نُهدد أنفسنا بالرحيل

والاستسلام لأحاديثهم والخضوع لقوانينهم .إن أجمل حُب هو ما يولد من رحم القلق

هل من الصـوابٍ أن نسـتـسلم لأي سـببٍ تافـه ونخلع من صـدورنا كل هذه السنين وكلٌ منا يشق طريقـة نحـو عـزلتـه الأبدية التي لا تصنع منّا سوى أجسادٍ فارغة؟

أنا أحتفظُ بكِ في أرجاء روحي بينما تُولِيني للغربة والبكاء !

وأنتِ لا تزالين تمتـهنين مـوهبـة وضع يديكِ الحـانيـتين على صدركِ كُلما اشتقتِ إليّ ، تقبضين قلبكِ بأصابعكِ بكل ما أوتيت من حسرةِ ، حتى أشعر بأنكِ تحتاجيني إلى جانبكِ ، لأجل أن أُرطب قلبكِ ببـعض الكلمـات الموبوءة بالمشـاعـر الضـارة!

- هل هُناك أسوأ من ألا تحمل فيكَ سوى الفراغ؟
- أجمل مساوئ الفراغ أنهُ يُعلّمكَ من هُم أصدقاؤك الحقيقيون

مرت السنين يا حبيبتي وقوّتنَا مآسينا ، نجبر أنفسنا أن نفترق لبرهة من الوقت حتى نُراجع مشاعرنا ، ونغسل غباء قلوبنا . .
وكم يلزمنا من الغياب حتى نتعلم ألا . . نفترق؟
كل هذا الفراغ ينقصه أنتِ ، فقد ملّتنا ومَلَلْنا شبابيك اليأس ،
إلى متى نتقاسم دموعنا
ونلبس أحزاننا ثم يذهب كلانا في بكاء !
كل هذا الفراغ ينقصه أنتِ .

- صباحُ الحنين . .

- كيف حال قلبكِ ؟

ألم يَنضج من الشـوق والعـزلة؟ ألم يَحنّ إلى تراشق الكلام والغزل وارتشاف الحب؟

أم عدلتِ عن تربية الأمل واهتديتِ بالإكراه لِطواعية القبيلة ، التي لا تؤمن بالحب من رجلٍ غريب يجمعكِ به حُب صادق ودين؟ وينتظر أيَّ إيماءةٍ توحي بالقبول في فكرة أن نكون معاً كما حلّلَ الله !

أما زلتِ تخافين من أن تُصارحينهم بحبنا؟ الخوف لا يمكن أن يساعدنا في إكمال علاقتنا ولا يصنع بيننا وبين أرواحنا رابطاً قوياً . . بل يَسوقنا كما يشتهي دون أن نستطيع إمساك زِمام الأمور وتنسيق نَمط رحلتنا .

أدرك أن والدكِ يخشى عليكِ من الغرباء وأبناء الشوارع والمستقبل ، ولكن يجب أن يمنحنا فرصة وشرف محاولة بناء حب كما يليق بكِ كي تشهد عليها القبيلةُ وتعلَمَ أنّ الزواج لا

يتعلق في جذور الرجل بل في طهارة خُلقة وصُلح عقيدته وإيمانه في الله ، ويدرك معنى «رفقاً بالقوارير» بكل ما تحمل الجملة من معنى !

ثّم ليس ثمة أبٍ قاس إلى درجة أن يَحكم على ابنته بالحرمان الأبدي الذي سيصنع منها امرأة هشّة قابلة للانكسار والضياع في لحظةِ فراق مجنونة ممكن أن تحدث !

أعلم والله أني سببتُ لكِ الأذى والكثير من الحرائق ، وكُلما قلتُ لكِ هيّا إذن لِنفترق ، يَصفرّ وجهكِ وتسقطين صريعةً لا تتقبلين فكرة الغياب ، وكلُما غبتُ عنكِ أصابتكِ وعكةٌ صحية طويلة ومزمنة إلى إشعار عودتي إليكِ . .

ولكن ماذا عسَاي أن أفعل وأنتِ معي ولستِ لي ، ولا تملكين القوة كي تخبري أباكِ عنّا؟

تقولين لي على مضض . . أرجوك إن كنت تريدني معك انسَ هذا الأمر لإشعار آخر . .

ثم أصمت ، بينما عيناي تُحدقان بكل خيبة أمل إلى عينيكِ ثم تضمّيني وتبكين كالطفلة التي يأخذون لعبتها دون أن يدركوا بأنها «مُجرد طفلة» . .!

كيف أستطيع إكمال مسيرة حبكِ . .؟

وأنتِ تُغلقِينَ عليّ كل نوافذ الأمل وتزجّيني في اليأس المُكبل ، وليال الحزن والشتاء !

تواطأ كل شيءٍ ضدي . . ولم تتركي لي خياراً سوى أن أستسلم وأنتشل قلبي وأعيش دون أن أشعر بالبرد والوحدة والضياع والألم المتكدس في صدري وأطراف أصابعي !

وهل أستطيع أن أتواطأ مع الغياب وأشق طريقي إلى معابرَ لا تؤدي إليكِ؟

هل الأقدام كفيلة بأن تُطوّع مشاعرنا وتجعلها تسلك غير الطريق الذي توده؟

ماذا لو تعثرت الذاكرة بكِ مرة أخرى وعدتُ إليكِ وأنا مُدججٌ بالحزن والتعب؟

مَن يُعاقب ذاكرتي ؟ هل أستطيع توبيخها ؟ هل بالإمكان استئصالكِ من جذورها ، والعيش دون أن أخاف من ذكرى عابرة تُداهمني وأنا في غفوة النسيان؟

ماذا لو أنني لم أستطع التوقف عن حبكِ . .؟

ماذا سيكون مصيري وأنا خارج مساحات قلبكِ البيضاء أعيشُ ضجيجي ، دون أن يُهدئ من روعي أحد؟ لقد تغيرت المدينة يا حبيبتي ، وتغير الإسفلت ، وأسماء الشوارع وأشكال البنايات ووجوه المارة والأصدقاء . . .

وحدي أنا لم أتغير . . القلوب الصادقة لا تصدأ ولا تغيرها قسوة الأيام ومرارة الحياة .

وأنا قابلٌ للاتساع والتمدد في أمل أن أعيش إلى جوارِكِ وأرتب فوضويتكِ

وأربت على قلبكِ كُلما باغتتكِ الأحزان ، حين تكونين وحيدة لا أحد معكِ

وأيضاً قابلٌ للتأخير والانتظار إلى آخر رمق بيننا . . وإن وصلنا إلى نهاية المطاف سأجدُ طريقاً آخراً أستطيع من خلاله أن أبحث عنكِ بقلبٍ جديدٍ ، وحب جديد ، وأمل جديد ، ومشاعر جديدة غير مستعملة ، وإنسان صالح للحب والحياة !

**

تنطفئ أنوار المدينة . . وقلبي باقٍ لا ينطفئ ، يبقى مُتصلاً بكِ حتى في أوجِ النوم وانشغالات الحياة اليومية ، امرأة مثلكِ من الظلم ألا أُدوّنها كل ثانيةٍ في جدول أعمال الذاكرة !

وإن نسينا . . ارتعشت قلوبنا وذكّرَتْنا في بعضنا . هكذا نحن نتقاسم أنصاف الأشياء بيننا دون أن نعلم ، تجمعنا أحلام مُشتركة كالاغتراب إلى مدينة لا يَشدّ أحدٌ رحاله إليها .

دائماً نحلم أن نكون وَحدَنا لا أحد معنا ، نخلع منا حماقة الغياب وننام وكل واحدٍ فينا يلتحِفُ قلبَ الآخر إلى أن تُصيبنا نوبةُ حبٍ بعيداً عن ضوضاء المدينة وتغريد العصافير .

ألم أقل لكِ ذات يوم أنّ حبالكِ الصوتية مشروع موسيقى؟

وحدكِ . . ونافذة وتلويحة وداع ؛
منفية في غرفتكِ التي تُشاركك فيها أختكِ المُعقدة التي ترفض كل تفاصيل حبكِ مع شخص لا تربطكِ به شجرة العائلة .
تبكين . . ثم تَمسحين دموعكِ لأنهم لن يفهموا حزنكِ ، ثم تسألكِ أمكِ على حين غرة :
- ما بكِ؟
وتودّين أن تصارحيها بحبكِ الغير مرغوب في نهجهم ، وعلى مهلٍ تصمتين وتقولين بابتسامة موبوءة :
- لا شيء فقط ألمٌ في صدري
لأنكِ تعلمين بأنهم سيودعونكِ حبل المشنقة في لحظة اعترافكِ المجنونة !
وفي الضفة الأخرى من الحلم تعيشين مع حبيبكِ الغير شرعي في بيت باريسي ، وموسيقى عن الحب الأبدي وقصائد تُمجد حبكِ ، وعن زيارات كل صديقاتكِ اللاتي نجحن في قصص

الحب ، وعن أفراحٍ لن تحدث . . وعن أشياء كثيرة مرفوضة في حياتكِ البائسة ، لا يطول صمتكِ وحزنكِ . .
فليحكموا عليكِ بالسجن المؤبد في غرفتكِ ؛ أفضلُ حالاً من أن تعيشي على كنفٍ رجل يرفضه قلبكِ !

**

هذه أنتِ كما أعرفكِ ، تكبرين فتصبحين أكثر جمالاً ، رغم الحزن الذي يقتات على عينيكِ الجميلتين ، لا تزالين قوية تُزينين بؤسكِ بالمجاملات ، تشعلين أصابعكِ العشر فرحاً لكل أولئك الصغار الذين يجالسونكِ ، تتحدثين معهم عن الأمل وعن الفرح وعن الأحلام التي لا تكون والأمنيات التي لا تجيء . . وفي داخلكِ تتقد الحسرة والخيبة ، تنثرين أبجديتكِ التي لا تؤمنين بها حتى تُغذيهم سعادةً موقوتة .

هل الأمر حقاً يستحق المكابدة ؟

لنكن صادقين : ألم يكن علينا أن نُعزيهم منذ طفولتهم حتى يعتادوا الحزن والبكاء ، لئلا نتحمل بلاهتنا بعد عدة سنين وهم يلتهموننا بنظرات الكراهية ؟
ألا تزالين مُصرة على إخفاءِ الطفلة التي تشيخ حزناً في فؤادكِ؟
أو أنكِ لا تريدين أن يُشاهدوا انطفاء الفرح في عينيكِ الكاذبتين !
هل ترين أنّ الأمر يستحق كل هذا الوهم والخداع ؟
دعينا نصارحهم بأنهم لن يتنفسوا بكل سهولة كما يظنون ، وأنهم مُعرّضون للاختناق دون أن يخوضوا البحر . . .!
هل ينبغي أن نكونَ في نظرهم أطباء تجميل للكلام ، وأننا كُنا نُروج الكذب؟

ماذا لو . .

تضعين يدكِ على فمي وأنتِ تقولين لي «أششش» ثم تُقبلين رأسي وتذهبين دون أن تتركي لي ابتسامة صغيرة . .!

تعـودين إلى عـزلتكِ وأنتِ مُـحـملة بالخوف من الغـدِ ومن فقداني ، تأبين أن تعيشي مُستقلة . . . حياة جديدة ، زوج ، أطفال ، حب ، وتقبلين أن تكوني معي تعيسة ، دون حلم ، دون أطفال ، دون حياة يُطوقها الأمان .

تقولين لي دائماً أنتَ زوجي وطفلي والأمان المؤقت . كم ينبغي علينا العيش دون أن نستطيع أخذ نزهة صغيرة في أرجاء المدينة؟

هل يجب علينا أن ننتظر سفر والدكِ حتى نستطيع أن نشعر ببعض الحب والدفء؟

إلى متى ونحن متوحشون في نظرهم وبقية الناس أليفون لأنهم استسلموا لليأس؟

ما هي الجريمة التي ارتكبناها حتى يحكموا علينا بالسرية التامة في حبنا؟

ماذا لو تركونا عصفورين في شجرة معزولة عن العالم ، لماذا يَصرّون على إشهار البنادق علينا ورمينا بالرصاص؟

هل ينبغي علينا أن نُروض قلوبنا لأشخاص لا تربطنا معهم أشياء مشتركة؟

ليست حياة تلك التي لا تبدأ بالحب والرسائل والسهر والخصام والمقاومة لأجل أن نتحدى عثرات الأيام والناس الذين لا يملكون الحب والحياة وهمهم هدم الآخرين .

المرأة لم تُخلق لِتكون «آله تفريخ» والرجل لم يُخلق بحثاً عن سرير !

خُلقت المرأة من ضلع آدم . . يعني أنّ ما يجمع المرأة في الرجل أكثر من مجرد سريرٍ وولادة !

عندما يختلط الحب بين الرجل والمرأة هُنا نشعر بقيمة الحياة ، ماذا لو أننا معاً ونعيش معاً ولا يجمعنا شيءٌ قبل أن نلتقي!

إن أسوأ حياةٍ تلك الخالية تماماً من حصاد الذكريات واللحظات المدهشة . .!

هل سبق وأن أطلتِ النظر والتأمل إلى جدارٍ لا يحمل على جسده لوحة فاتنة !

تماماً تلك هي حياتنا . . تُصبح مُملة عندما تخلو من الأشياء الجميلة والرائعة .

ما أصعب أن يعيش المرء وحيداً يا حبيبتي ، يُصبح جسداً
يبحث عن روح تتلبّسه لِيشعر بقيمته . .
سأكون كاذباً لو قلتُ لكِ أنكِ لم تزرعي فيّ كل تفاصيل
المشاعر ، وحركتِ كلّ الأحاسيس الراكدة منذُ الطفولة . . .
كنتِ مطراً بلّل جفاف القلب ولم ينبت في صحراء صدري
سوى وجهكِ وصوتكِ ووقع أقدامكِ وأنتِ تجرين أذيال
اليأس . . تودعيني لِيوم لا أعلم هل يجيء ، أم سأكون ضحية
انتظار حبكِ!

ما أسوأ أن تكون ضعيف الحيلة وأنت ترى أحد أحلامك
يتراقص أمامك دون أن تستطيع الإمساك بهِ أو حتى مُناداته!
في هذا العالم الواسع . . ثمة شيء يحدث لك ويجعلك أصغر
من صدر عصفور !
وكم عصفور هرب من غصن صدري حين اشتدت حاجتي
لأي أحد !

أشقّ صدري . . أبحث عن أي شيء يعيل حزني ويربت على كتفي

صديق ؛

رفيق ؛

حبيب!

ليس ثمة أحد يعيلني أو يأخذني من يدي نحو السعادة ،

فـ في القلب ضجة ،

مارة

أقدام

وغرباء حُبّ . .!

وأذكرُ جيداً حين كنتُ صدقةً جارية

يمسحونَ على جسدي

وأنا أدعو لهم في ظهر الغيب والقلب !

أعود إلى غرفتي مشياً على الأحزان !

يا الله . . لا شيء يحملني ، أشعر وكأنني جبلٌ بشريٌ ، أحملُ على كاهلي كل أولئك الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم ، لا أحد معي . . وحدي أستَقْبِلُني ، ووحدي أبكيني ، ووحدي أُطبب جراحي ، ما أسوأ ألا يكون إلى جانبكَ أحد يُشكل وجهك الطيني حين يبتلّ بالدموع .

إنهُ لِمن الوجع أن تَحلم بِشخص لا يحلم بك ، تشعر وكأن حياتكَ التي تعيشها مضيعة للوقت والعواطف ، أجمل حلم هو الذي لا يُدرج تحت بند «أملاك خاصة» ، تستطيع أن تلهث طوال عمرك وأنت على يقينٍ أنكَ ستحصل عليه يوماً ما .

ما أبشع أن تكون أحلامنا تحت سيطرة أُناس لا يحلمون ولا يفقهون معنى أن تموت من أجل أن تحقق حلمك ، حلمك البسيط جداً في نظرهم والثمين جداً لديك .

**

وأنتِ؟

ماذا لديكِ لي؟

ألا تزالين صامتة !

هل أنا ضمن لائحة أحلامكِ . . أم أنني على دكة احتياط الحلم والحب !

آه لو أنني أستطيع شق جسدكِ والتجول في قلبكِ كي أراني بِوضوح لئلا أعيش بقية العمر في مصيدتكِ . .!

أينكِ الآن؟

هل يمكنني اعتقال صوتكِ ؟

وأحرره كُلما اشتقتُ إليكِ !

عليّ أن أُهدئ من مخاوفي ، أحتاج أن أدس وجهي في صدركِ كي أشعر بالحياة والأمان . . كم أفتقد صوتكِ ونبض قلبكِ وكم أشتاق إلى رائحة ملابسكِ ، أحتاج إلى إغفاءة طويلة الأمد حتى تكنسين جسدي من تعب الانتظار ، أحتاج إلى شحنة حب تُزلزل قلبي وتُعيد له الحياة ، كم يصبح المرء مذعوراً حين يشعر أن حياته مُعلّقة بين الحياة والموت ، وكم مرة عليّ أن أموت حتى أعيش تلك الحياة التي ألهثُ وراءها منذُ سنوات دون أن أستطيع الوصول إليها . .

يا الله . . ما أوجع المشاعر التي لا نستطيع أن نبوح بها ، في بعض الأحيان ثمّة أشياء لا نستطيع أن نُترجمها بالكلمات ، العيون وحدها كفيلة بأن تُوصل لنا كل التراكمات التي تسكن دواخلنا ، وآه . . ما أقبح أولئك الذين لا يفهموننا دون أن ننطق .

- وأنتِ؟ هل تفكرين بي الآن ؟ أم تتجرعين النسيان دون أن يجيئك شوق طارئ على غير العادة؟
- النسيان لا يلغي الذكريات ، إنهُ فقط يساعدنا على مواكبة الحياة بجرعات ألم متفاوتة
- الذكريات وحدها لا تموت ، إلى أن نُودع هذا العالم السيء ونحن نحمل معنا كل أشيائنا وتفاصيلنا الصغيرة .

الهدوء يضجّ في المكان . .
وأقول في قرارة نفسي «هل حقاً ينبغي علينا أن ننسى تلك الأيام التي قضيناها معاً ، وتلك الأماكن التي تسامرنا فيها طويلاً ، وتلك الرسائل القصيرة المؤلمة التي عشناها بين قلق تأخيرها ومُرّ انتظارها ، هل ننسى المُكالمات الطويلة والأحلام

التي شاخت في أرواحنا ، هل ننسى ونستسلم ونُكمل حياتنا كما يعيش الناس الطيبون . . دون أن نُقاوم النوم لأجل ليلة حب دافئة ، وأحاديث مُفعمة بالشوق بالود؟ لو أنني أنام وأصحو بذاكرة جديدة وقلب جديد خالٍ» .

أستيقظ . . لا لأعمل !

بل لأحلم بكِ ، أنفضُ من جسدي كل الأحلام الميتة وأحلم بكِ من جديد بِحلمٍ يحمل وجهاً أكثر إشراقة ، أوضئ قلبي قبل أعضائي ثم أصلي ركعتي الفجر بقلبٍ سليم ، وأنسى كل أولئك الفقراء والمحتاجين في هذا العالم ، أتضرّع إلى الله أن يرزقني إياكِ في كل سجدةٍ ، وأن تكوني رفيقة دربي التي أتكئ عليها حين يغزونا الشيب ويلتهمنا الموت ، وهل هُناك أكثر موتاً مني؟ وهل هناك أفقرُ مني؟

الموت هو أن تعيش دون أن تحصل على ما تريد ، والفقر هو أن تعيش كامل حياتك بتعاسة . .

وأنتِ الحلم والحياة في آنٍ واحدٍ ، وما أجمل أن تكون حياتي خاوية إلا منكِ . .

لا أريد شيئاً يكفيني أن أعيش العمر بين دفتيكِ ، وما أجمل أن يقيم مَن تُحب في صدرك المهجور منذُ ولادتك ، يرم قلبك

ويعتني بجفافك الداخلي ، ويعدك ألا يتركك إلا أن يفرقكما الموت . .

ويا الله . . ما أسوأ العمر حين لا يكون إلى جوارك . . من دهشتي بكِ تمنيت لو أنني لم ألتقِ بكِ ، في بعض الأحيان . .

الأشياء الجميلة تؤذينا !

وأنتِ ما أجملكِ من ألم ، بعض الآلام نتمنى لو نعيشها فقط لِتُذكرنا بأشياء جميلة مضت .

ويبقى العمر . . ويفنى العمر كله في ساحة انتظاركِ . .

وأبقى كما أنا ، بقلبي القديم الذي تعرفينه . . أُجدد مشاعري معكِ كل يوم إلى أن يكتب الله لنا الحياة معاً . .

وصورتكِ . .؟ كُلما نظرتُ إليها قلت :

«اللهم إني أعوذ بكَ من وعثاء السفر»

ألم أخبركِ أن النظر إلى وجهكِ تحليق إلى عالَمٍ آخرٍ ومشقة ، ودروب كثيرة ، وأوطان !

أحبكِ . . ولا تقلقي حيال ما أُقصّر به وأنا معكِ ، أعوضكِ به وأنتِ في الغياب . .

أجلسُ وحدي . . بينما أنتِ تُعانقين الأمل ، أرتب فوضى مشاعري ، وأطردُ كل أولئك الذين يريدون مشاركتكِ صدري ،

وأبقى حلمكِ ، رهن أمنياتكِ . . بينما أكون للآخرين مجرّد «أضغاث أحلام» . .

تكبرين بي أكثر فأكثر ، أما الآخرين يكونون على لائحة النسيان والإهمال ، لا أحد يُضاهي حبكِ في هذا العالم الذي أصبح الحب فيه موضةً مُتداولة بين الناس ، وحدكِ من ألانَ قلبي المتصحّر ، كيفَ لا . . وأنتِ سحابة حبٍ جاءتني في وقت كنت فيه أشبه بالإنسان الضائع وسط الغرباء .

مضى أكثر من نصف عقد ولا تزالين تُكررين سؤالكِ «هل تحبني؟»

ياه . . كيف تسألين هذا السؤال وأنتِ تعلمين بأني أحبكِ حدّ أن أموت لأجلكِ

- هل حقاً تضحّي بنفسكَ لأجلي ؟

- يا حبيبتي ماذا تريديني أن أفعل في العالمِ حين يخلو منكِ؟ إنني أنظر إليكِ وكأنكِ الحياة بأسرها ، تقولين لي : هل بهذا الشكل يضحّي الناس بحياتهم لأجل الذين يحبونهم؟

أتمنى أن نعيش أكثر . . حتىَ تدركي ذلك ، بعض الأسئلة تموت دون أن نجد لها إجابة .

وفي الحب لا أحد يسأل الآخر لماذا تحبني لأنهما كلاهما لا يعلمان لماذا أحبّا بعضهما ، وأنا لا أعلم لماذا أحببتكِ بالتحديد ، ولكنني أعلم أنني في حالةِ استعدادٍ لفعل أي شيء كي أكون إلى جانبكِ .

ياه . . لو تعلمين كيف أرى الحياة من خلالكِ ، لأيقنتِ كم أنتِ شيءٌ عظيم بالنسبة لي ، بالشكل الذي يرضي ظنونكِ ويطرد عنكِ كل الأوهام الصغيرة التي تُعشعش في عقلكِ ، أنظري إليّ بتمعّنٍ ستجدين نفسكِ فيّ يا عمري الضائع مني . العيون وحدها لا تُزوّر لنا الأشياء . . ولا تندهشي من لحظة اكتشافكِ ذلك ، هكذا نحن مرميّون في مكانٍ ما ، لا أحد يملك نفسه . .!

أتذكر لحظة لقائي بكِ . . كم كانت نعمة من نِعَم الله وكم أشكر الله أنهُ وهبني إياكِ .

في لحظةٍ كنتُ عبارةً عن إنسان مُتحجّر المشاعر لا يفقه في الحب شيئاً ، ولكني بكل تأكيد كنتُ أعلم أنني أنتقل إلى مرحلةٍ جديدة ستكون جميلة ، إلى أن تُصبح شيئاً فشيئاً خطيرةً قابلة لأعظم خسارة ممكن أن يتلقاها المرء .

وهل هناك خسارة أكبر من أن أخسر فرصة العيش معكِ ؟

تُعدّين نفسكِ للرحيل ، وتقولين لي بأملٍ يعيد لي الحياة : لا تخف ، لن يضيّعنا الله!

وأنا أتنفس الصعداءَ ولا أملك شيئاً آخر يجعلكِ تمضين وقتاً أطول معي ، ولكنني دائماً أكتب لكِ في ورقةٍ بيضاء شيئاً

مختلفاً لتقرئيه قبل أن تنامي، وفي هذه المرة كتبتُ لكِ «أرجوكِ لا تتركينني مهما اشتدت الظروف، فمِن غيركِ لا أعرف بأيّ حال سأواجه الحياة وحدي».

أمسكت الورقة بملء كفّيها وقالت -بِصوت مبحوح- أعدكَ لن أتركك ولو كلفني أن أعيش بقية العمر وحيدة، فهذه المشاعر وُلدت لكَ وحدكَ ولا أقبل أن يُشاركك فيها أحد، واعلَمْ جيداً إن حدث شيءٌ وغيّر مجرى حياتنا فليس مني فأنا والله أحبك، وأتمنى لو كنت إحدى قريباتك حتى لا يقف في طريقنا أحد، وتعلم جيداً أنَ أختي تتربّص وتترقب على الدوام، تنتظر لحظة فراقنا حتى تطمئن عليّ وعلى مستقبلي وهي لا تعلم أنها ستهدمني أكثر مما تتصوره، وأحتاج إلى سنواتٍ كثيرة حتى أرمم نفسي وأعتاد على وخز ذاكرتي حين تستدعي وجهكَ في ليلةٍ تكسوها الوحشة والدموع، لا أحد يشعر بي، جميعهم ضدي، أتمنى لو أستطيع أن أصرخ في وجوههم وأقول لهم: أني أعشقه ولا يمكنني العيش دونه، ولكنني أخشى أن يَحولون بيننا وأمضي بقية حياتي على الأقراص المنومة حتى أستطيع أن أهرب من كل شيء يذكرني

بك ، أنت تعلم أنهُ مَرّ الآن أكثر من شهر ونصف منذ آخر مرة تحدثَتْ معي أختي حول علاقتنا ويجب علينا أن نوقفها لأننا نعيش الوهم ولن نجد سوى العدم ، ويجب أن يختار كل واحدٍ فينا طريقاً جديداً لأجل حياة جديدة يعيشها كلانا ، أدرك أن القرار صعب جداً ولا نستطيع الاتفاق عليه ، ولكن دعنا نتمسك بالله لأنّ الله وحده يشعر بهذا الحب الذي ينمو معنا ، ولا تقلق سأتحدث معها وأقول لها نحتاج بعض الوقت حتى ننفصل إلى الأبد وكل واحدٍ منا يبحث عن حياة جديدة يعيشها . . . . قاطعتها وقلت لها :

- هل حقاً ستتركينني؟

- وهل تظن أنني أستطيع ذلك؟

- لا أعلم . . بدأت أخافُ منكِ ، أشعر وكأنكِ جادة هذه المرة

- لا لن أتركك مهما كلفني الأمر من جهد وتعب فالحياة بعدك لا تُطاق

- وأنا أيضاً . . لا أُجيد قفز النوافذ ! بل أنتظر مروري إليكِ من بابٍ سيتركه الله لنا موارباً .

ولا تخشي . . فكلّ هذه الحشود التي تقف بيننا قد تكون اختبارات إلهية ، لذلك وُجِدَ الصبر . . فالأشياء التي تتأخر

تبدو أجمل في أغلب الأحيان .

وأنا عند حُسن ظنّ قلبكِ ومشاعركِ ، ففي كل مرة تُداهمني امرأةٌ على حين فتنة أخافُ الله بكِ ثم أتذكر عينيكِ ، وأعبُرُ إلى قلبكِ دون أن تثير اهتمامي ، ولا تفكري . . لا أحد يستطيع الاستحواذ على صدري ، فالقلب الذي أحببتكِ به امتلأ بكِ ولا يتسع لغيركِ .

كنتِ تنظرين إليّ وتقولين بكامل رعشة روحكِ :

- لن يُحيدني الطريق عنكَ ، سأبقى راكضة نحوك وأنا حاملة كامل حياتي لك ، لا لن أعيش أيامي في حِدادٍ بعدك . . فأنت الحب الذي لن يفارقني ما دمتُ على قيد الحياة . .

- تأخر الوقت إني ذاهبة ، إلى اللقاء

- إلى اللقاء أيتها الغالية .

تمضي الأيام وأنا أحتمي بالأمل وأقاوم الخيبات اليومية ، شيءٌ ما سيحدث . . هذا الشعور الذي يُلازمني منذُ آخر مرةٍ رأيتكِ فيها لأنكِ تأخرتِ وليست من عادتكِ أن تتركيني وقتاً طويلاً . . أدعو الله أن يطرد الوسواس كي أستطيع ممارسة الحياة كما يفعل الناس البسطاء ، لم أعتد على ارتداء أزهى ثياب الحزن وأخرج للحياة ، كانت أكبرُ همومي أن لا ينقضي اليوم وأنا بين زحام الأصدقاء أعيش كامل سعادتي كما يعيش الآخرون .

أتذكر الآن كم كانت الحياة غير مُكلفة قبل أن ألتقي بكِ ، ليس ثمة عملية بُكائية في نهاية النهار ولا أهتم بالتفاصيل ، أكثر ما يهمني معرفة الخبر دون اللجوء إلى خوض الأحاديث الطويلة والمفصلة . . . بكِ أدركت كم هي مهمة تلك التفاصيل الصغيرة . . بل التي لا تُذكر ، تتحول أعين العاشق إلى مجهرٍ حين يتعلق الأمر بمن يحب . . هكذا نحن نهتم بالأشياء التي نشعر بأنها ستوجعنا مع مرور الأيام ، تدفعنا القلوب إلى ما تشتهي وما يُخالف العقل .

يااااه . . من يُنجدك حين يتصارع قلبك مع عقلك !

تخيّلي العقبة معي . .

هل كان ينبغي عليّ أن أطوع حياتي لعقلي؟ وأترك قلبي على قارعة الطريق إلى أن يموت دهساً بين أقدامِ المارة ؟

أما أنا . . الأشياء تطعنني ولا زلتُ واقفاً ، مؤمناً في هذا القلب الصغير الذي خُلق من أجل التقوى والإيمان بالله ثم صلاح الجسد والحبّ والرحمة والعاطفة وأنتِ .

أنانيون هم . . بل متوحشون ، أولئك الذين يَحُولُون بيننا ، نحن في زمن تجارة الإنسان والكلام .

صابرٌ . . والصبرُ عبادة القلب ، وأين القلب بعدكِ ؟ أنا حافي القلب منذُ آخر مرةٍ رأيتكِ بها ، بينما أنتِ تُعلّقين قلبكِ على الشماعة . . تُجففين نهر مشاعركِ لئلا يؤلمكِ شيء ، تعيشين مع أولئك الذين يلعبون بأحلامنا ويرسمون لكِ طريقاً كما يشتهون وكما يحبون . .!

لم تعودي أنتِ كما كنتُ أعرفكِ . . مَرّ أكثر من خريف ولم تفاجئيني برسالة حبٍ طويلة ، أتذكر جيداً حين كنتُ أغيب عنكِ لأيامٍ ، لم تكوني قادرة على بناء سقف انتظار صغيرٍ عني ، كنتِ تُصفّفين حزنكِ -كما تصففين جدائلكِ- في غيابي ، تنتظرين أيّ شيء مني يُحيطكِ ويمنحكِ الدفء والطمأنينة .

هل يُعقلُ أن ترفعي رايتكِ البيضاء وتستلمي بهذه البساطة ؟

كم هو صعب أن ننهي كل شيء ونوأد وجه الحكاية في رملٍ اليأس ، حتى إذا استطعنا . . من سيحمينا من شروخ الذاكرة!؟

لا ينبـغي أن تسـمـعي شـريط أحـزاني على الدوام ، أنا قلبٌ مفتوح . . منذُ أول مرة رأيت عينيكِ الجميلتين ، ويحدث أن تُشرعَ عُمرك وأحلامك لحضور شخصٍ ما صدفةً أو جَلبهُ التيهُ إليك . .!

آه أيها القلب المسكين ، كم هو مؤلمٌ ألا تكبح مشاعرك قبل أن تدرك ما سيحدث لاحقاً .

لا يشغل تفكيري إلا . . ماذا تفعلين في غيابي الآن . .؟

يا الله . .

أنا لستُ إلا أفكاراً معقدة . .

رتبني يا الله ،

اجعلْني مشروعَ وردةٍ في أرضٍ جرداء

فهذا العالم يقتلنا ونحن في سكونٍ دون أن نستطيع الدفاع عن أنفسنا . .!

أذهب إلى آخرِ مكانٍ اجتمعنا به حتى أُجدد ذكرياتي . . أفتحُ نافذة القلب . . أنظرُ بملءِ عينيَّ إلى كرسيين كنا نتسامرُ ونحن جالسان عليهما ، أتذكر كيف كُنا نؤسس أجمل حياة ستجمعنا ذات يوم ، نتحدث عن أطفالٍ سيرزقنا الله بهم وهم بيننا على سريرٍ واحدٍ أحلّهُ الله ، نبحث في جوف الأيام عن ليلةٍ ستجمعنا ونحن نُودع كامل مآسينا .

يا الله . . بعد ما كنا نلتقي بقلبين نابضين ، أصبح كلانا يخشى أن يموت وحيداً من غصةِ قلب . .!

مَرّ وقتُ طويل من البرد والجوع ، القلب نَضج شوقاً ، يتضرع إلى خبرٍ يُشفي مرض المشاعر ، كم يبدو العمر ساكناً وبارداً وأنتِ في الغياب .

أعود إلى البيتِ مُحمّلاً بكلّ أسباب التعب ، وأحملُ وجهاً ليس لي . . .

أخرج من غرفتي لا أحد يودّعني !

أعود إلى الغرفة لا أحد يستقبلني . . يا الله كم أنا وحيد ، أدخل غرفتي أستلقي على السرير ، أُخرج هاتفي فأجدُ رسالة «أرجوك اتصل بي على وجه السرعة» وأُحلّق فرحاً كما لو نبتت لي أجنحة .

قبل أن أتصل . . أختار أجمل عباراتي وأحفظ كلماتي عن ظهر قلب ، أطلب رقمكِ . . .

- أهلاً بكَ . .

- أهلاً بكِ . . هل اشتقتِ إليّ . . كنتُ أعرف أنكِ تحترقين شوقاً لصوتي ، لماذا تأخرتِ؟

- انتظر أرجوك . . واسمع ماذا أقول إلى النهاية . .

- ماذا . .؟ ملء السمع لكِ

- في الليلة الماضية اتصلت امرأةٌ على أمي وتريد أن تخطبني لابنها وسيأتون بعد يومين ، أريدُ منكَ أن تعرف أنني أحبّك ، وأنّ الأمر ليس بيدي!

لا أتذكر أنني قلتُ شيئاً . . أغلقتُ الهاتف دون شعور ، كم يكون الصمت مُعبراً حين تُصاب بالفاجعة!

تكوّرتُ على السرير وأنا في حالةٍ من اللاوعي ، لأول مرة أشعر أنني في كامل هزيمتي ، ثم بكيت . . احتضرَ في صدري كلّ الكلام ، واستجدّ في صدري كلام آخر لا أحد يفهمه أو يفقهه!

أمسكتُ الهاتف واتصلت بها . . قلتُ :

- لا تنبسي ولو بكلمة واحدة . . واسمعيني إلى النهاية ، لا يهمني إلا أن أعرف شيئاً واحداً الآن ، الآنَ فعلاً . . كيف تقبلين أن تكوني في حضرةِ رجل غريب وأنتِ مريضة حبٍ برجلٍ آخر ؟ لو أنني على يقينٍ أنّكِ تُفكرين في تأسيس حياة جديدة لالْتمستُ لكِ العذر ، ولكنني أعرفكِ جيداً تُحبينني . . فهَل يُعقل أنكِ كنتِ تكذبين عليّ؟ أكثر من نصف عقد . . وأنتِ تكذبين عليّ! لو لم تكوني كذلك ، لماذا لم ترفضي الأمر قطعياً؟ كم أنتِ سيئة جداً حينَ تلتزمين الصمت بينما أهلكِ يرتبون لكِ موعد زواج مع رجل جديدٍ لا تربطكِ به أي علاقة سابقة ، أو لحظة حب وُلِدت منذُ سنوات ، أو نظرة إعجاب تسللَتْ من بين الزحام . . وفي صدركِ رجلٌ قديم تربطكِ معه وعود وعهود ، لا أعرف كيف

تستطيعين ممارسة الحياة في حضن غريبٍ وإن كان سيصبح زوجكِ، سيبقى غريباً ما دمتِ تحملينني في صدركِ، كالطفل بين أحشائك، لا أعلم الآن مَن يغلب الآخر.. شجاعتي في تقبّل كل سخافاتكِ، أم هزيمتي وأنتِ ترمينني في نصف الطريق وتحملين في قلبكِ رجلاً آخرَ كي تُكملي معه الحياة..؟ يا الله كيف أفهم أن كل الذي حدث بيننا عبارة عن خدعة منكِ وأنّكِ كنتِ تبحثين عن وقت مستقطع من المرح! لا أحتاجُ منكِ شيئاً.. سوى أن تقولي لي ولو كذباً أنني الوحيد المقيم في قلبكِ، حتى ولو رتبوا لكِ موعد زفاف مع رجل لا يعرفكِ ولا تعرفينه.. قولي لي أنني الوحيد حتى أنام وأنا منتصرٌ بكِ

أتذكرُ أنكِ أجهشتِ بالبكاء، وقلتِ بصوتٍ متقطع:

- إ إ.. إلى اللقاء

أغلقتُ الهاتف، ولا أعرف كيف سيكون مصيري، أصبحتُ كالأعمى لا فرق لديه بين النور والظلام، مُتخبطاً، مصدوماً، وضائعاً وسط الكثير من التساؤلات...

يومان فقط . . وستكون مع رجلٍ آخر يتهامسان ويتلاطفان وكلّ

واحدٍ منهما يسأل الآخر كما يشاء . . .

يومان فقط . . وسيصبح رجلاً جديد المشاعر والقلب والوجه

معها ، بينما هي تحمل أطناناً من الحب والذكريات مع رجلٍ

نسَتْهُ وذهبَتْ خلفَ مصالح الحياة ومطامعها ، والعيش في بهرجٍ

فارغٍ ليس إلا !

لا يهمها أن تعيش مع رجل يراها ماكينة ولادة ، كل ما في

الأمرِ أن تجد حياةً جاهزةً لها وأن تصارع الموضة وتنتظر -بكل

تفاهة- آخر ما يعرضه شانيل وديور والماركات التي تجعلها فتاةً

ضوئية !

ما أسوأ أن تكون ثيابكِ أغلى ما فيكِ وتكون مشاعركِ أرخص

من ذلك !

يوماً ما ستجعد وجهكِ وتدركين أنّ القلوب وحدها لا

تتجعد!

وحين أموت لا أنتظر منكِ أحر التعازي ، بل قولي -في قرارةِ قلبكِ- ماتَ رجلٌ كان يحبني وفرطتُ به بكل وحشية وحماقة ، ولا تصلّي لأجلي أو تتضرعي إلى الله كي يرحمني ، بل دُسّي في كفني . . كلمة أحبكِ التي عشتُ لأجلها . . ومتُ لأنها لم تكن صادقة .

تهانينا لكِ . . على كلّ هذه الهزائم التي اتحدت وامتزجَتْ ببعضها إلى أن أردتني قتيلاً . .

تكوّرتُ على السرير أكثر وكأنني أحضنُ نفسي ، وأنا في أوجِ الغضب والحسرة والبكاء . . .

حاولتُ أن أنام حتى أنسى ما حدث ، ولكنّ البكاء يبقيني مفتوح العينين والقلب . .!

يا الله ماذا يفعل المرء حين يشعر بأنه سيخسر ما شيّدهُ طيلة سنين عدة . .؟ تقتلنا هذه اللحظة التي نشعر فيها أننا أموات دون أن نستطيع مُغادرة الحياة . .

تُعرِّضُنا الحياةُ في كثير من الأحيانٍ للوحدة لتجعلنا مُستعدين لِخسارات أعظم ، كالعيش بقية حياتك . . فارغ القلب والحلم ، ولكن هل هُناك أوجع مِن خسارة مَن تُحب ؟

لا زلتُ أؤمن أنّ شيئاً ما يحدث في الخفاء دون علمي ، نحتاج أحياناً أن نفعل أشياء لمن نُحب خِفيةً حتى يدرك حجم محبته في قلوبنا . .

يا الله . . ما الذي حدث حتى تتركني بهذا الشكل الغريب الفاجع؟ هل يعقل حقاً أنها ستوافق عليه وتتركني ؟

حتماً لا . . ولا أشكّ في حبها بتاتاً ، ولكن رضوخها للأمر كان سهلاً وغريباً للغاية ، أتمنى أن تنتهي هاتين الليلتين بسرعة حتى يصبح قلبها مكشوفاً وأراني بوضوح!

أتذكر أنّ أختها كانت توبّخها على الدوام . . تقول لها : لماذا تريدين إكمال حياتكِ مع شخصٍ لن تكوني معه؟ لماذا بهذا الشكل تصرّين عليه؟ بعض الأشياء نقع في حبها ولكنها ليست لنا ، متى تحكّمين الأشياء بعقلكِ وتنسفي كلّ هذه الأوهام من قلبكِ الذي يُطارد سراباً؟ الحياة مليئة بالفرص الجميلة وقد تكون هذه الفرصة هي المكتوب عليكِ خسارتها!
صدقيني أنّكِ ستعيشين بقية حياتكِ «مكتوفة العنوسة» ولا يوافق والدي أن تعيشي مع رجلٍ لا تربطنا معه علاقة الدم . . وتعلمين جيداً لو عَلِم والدنا عن هذا الأمر سيجعلكِ تعيشين حياتكِ بتعاسةٍ كبيرة وسوف تفقدين ثقته . . وربما محبته . . .

أما أنتِ . . فكنتِ تبقين صامتة كلوحةٍ حزينة ، تهزين رأسكِ كإيحاء لها أنكِ ستفكرين بالأمر ، ويبقى قلبكِ ثابتاً مُخلصاً لي بعمق .

أتذكر نصائح أختكِ لكِ والتي لم تغيّرْكِ عليّ بتاتاً ، ثم أؤمن أكثر فأكثر أنّ في الأمرِ سراً . . أشعر أنّكِ في مأزقٍ ومصيبة ، ولكنكِ تُخفين عني حتى لا توجعيني . . أنا أعلم أنني سببتُ لكِ الأذى والكثير من الحرائق ، وأعلم أنّكِ ستعودين لي بقلبكِ الذي ربيته بالحبّ والوفاء!

يا الله . . يومان يفصلاننا عن أمرٍ إما أن يُغيّر وجه الحكاية ، أو يبقينا معاً لحياةٍ مليئة بالحب والخطر . .!

مضى يومٌ بكامل تفاصيل الانتظار والعينُ ساهرة . . والقلب مُمتلئ بالخوف ، أخشى أن أفقدكِ في لحظةٍ مُغريةٍ تُصاحبها نصائحُ أختكِ فأبقى منسياً في كومة سعادتكم ، وأنتِ تُبدين موافقتكِ على هذا الرجل الذي لا تعرفين عنهُ شيئاً .

تأخذكِ أمكِ إلى أقرب متجرٍ كي تشتري لكِ شيئاً يليق بهذه الليلة الخاصة ، تَختارُ لكِ أجمل فستان وتخبركِ أنْ تجرّبيه وتقول «حتماً سيليق بكِ» . .

وأنتِ . . لأنكِ أضعف من فراشةٍ تحملين حزنكِ إلى أقرب «غرفة تبديل الملابس» ثم ترتدينه وأنتِ تبكين أمام المرآة ، تخرجين من الغرفة ثم تسألكِ بابتسامة عريضة «هل هذه دموع الفرح»؟

وأنتِ تُجيبينها بضحكة مزيفة وهي لا تعلم أنّ النار تُأجّج قلبكِ . . لم تسألكِ قط عن إعجابكِ بالفستان . . كلّ ما في الأمر أن تراكِ عروسة!

لم تُفكر أبداً أن هذه الدموع تخفي وراءها حكاية لم تكتمل بعد، ولم تفهم شعوركِ إلى الآن..

ثم تعودين إلى البيتِ وأنتِ تكتمين أنين قلبكِ وتسجنين دموعكِ خلف نوافذ العيون، تصلين إلى البيت.. وأنتِ راكضة إلى سريرك، تحتَ لحافكِ تموت ألف تنهيدةٍ من قلبكِ، وتنبت في حنجرتكِ صرخةٌ تَودينَ لو تصرخي ولكن خوفكِ يمنعكِ!

لا تعلمي ماذا تفعلين مع هذه المصيبة التي ستحدث خلال يوم أو ربما ساعات، تهاتفين صديقتكِ.. وقبل أن تنبسي بكلمة واحدة تبكين من فرطِ تعاستكِ، فتسألكِ صديقتكِ ما بكِ؟

تودّين لو تصارحيها عن حبكِ، ولكن تمنعكِ أشياءٌ كثيرة.. من بينها أن تظنّ أنكِ فتاةٌ سيئة وهي لا تعلم مدى صدق وعمق حبنا...

ثم تقولين «لا شيء.. فقط خائفةٌ من نتائج اختبارات سنة التخرج»

وهي.. تُهدئ من روعكِ ولا تعلم أن آخر همومكِ هي اختباراتكِ...

تشكرينها سريعاً على تعاطفها الذي أبدَتْهُ معكِ وتغلقين الهاتف وأنتِ تُودعينها بشكل مفاجئ . . .

تتكوّرين على سريركِ تُفكرين بي ، تبحثين عن طريقةٍ تخبريني بها أنّكِ تُحبيني بشدة ، ولكن لا تعرفين كيف السبيل إلى ذلك ، تودين أن تُطمئنيني بأنّكِ سترفضين مهما كلّفكِ الأمر ، ولكنكِ تتريثين لأنّكِ خائفة من أن يجبروكِ فتُفسدين وعداً جديداً تقضينهُ معي .

حائرةً لا تدرين ماذا تفعلين أمام هذه المشكلة ، تتأملين في صورتي التي ملأت شاشة هاتفكِ ، تُحدّقين إليّ بملء حبكِ ودون أي تردد تكتبين لي رسالة تملؤها التضحية :

«سأرفض . . لا تقلق يا حبيبي فلن يأخذني أحدٌ منك ، ولن أتركك تواجه هذه الحياة وحدك وأنا على قيد حبك ، ولو كلّفني أن أموت لأجلك» . .!

ترسلينها وأنتِ تعيشين نشوة انتصاركِ على مخاوفكِ ، وأنا على الضفة الأخرى من الحزن . . أستقبل رسالتكِ -وقبل أن أفتحها- أدعو اللهَ أن تكون الرسالة خاليةً من الألغام ، لأنني في حالٍ مُتدهورة . . .

أقرأ رسالتكِ . . ثم أبكي لأنني في لحظةٍ غبيةٍ شككتُ أنكِ تخدعيني طوال هذه السنوات ، ولكن ما العمل مع مجنونٍ مثلي لا يقبل أن يُشاركه أحدٌ في الأشياء التي يحبها ، وأنتِ أحبّ الأشياء لديّ . .!

في بعض الأحيان نوبخ من نُحب ونقدم له الكثير من الأكاذيب ، فقط حتى يبقى معنا ليثبت لنا أنهُ لم يكذب علينا بتاتاً ، هكذا نحن عندما نفقد الأشياء التي نعشقها نجعلها سيئة جداً ، لأننا لم نستطع الحصول عليها ، وأنتِ كنتِ ولا زلتِ أجمل أشيائي . . وأكذبها !

لا أعلم ماذا أفعل حتى تنتهي هذه الليلة المتبقية ، بل الساعات القليلة جداً على أفضل حال حتى نستطيع أن نعود لبعضنا ونُعيد ترتيب مشاعرنا ونُعاهد بعضنا على أن نُغلق الأبواب على أولئك الدخلاء ، الذين يهدمون كل شيء بنيناه ونضع حداً للذين يتدخلون في شؤون حبنا الذي لا يعنيهم .

أنتِ تعلمين أنني على أتمّ استعداد أن أدفع العمر بأكمله فقط لأكون إلى جانبكِ ، آه لو يمنحوني فرصة واحدة تجعلكِ رهينة قلبي وحدي ،لتركتُ كل الأشياء على الإطلاق وجئتكِ كهديةٍ مغلفة بين يديكِ الحانيتين .

إنها من المرارة أن تتمنى شخصاً يتمناك ، ويقف بينكما الحظ العاثر منذُ الأزل .

أنظر إلى ساعتي تُشير إلى الثانية «قهراً» ولم يتبقّ إلا سويعات على جلوسكِ مع هذا الرجل الغريب . .
آه ما أسوأ هذا الشعور . . ما أوجع أن ترى فتاتك مع رجلٍ حتى ولو كانت تجمعهم محاولة زواج ، تبقى طعنة في القلب ، كُلما تذكرت أنهُ حفظ تفاصيل وجهها وطُرب لِسماع صوتها وشاركها أطراف الحديث الطويل . . وعرف ماذا تُحب وماذا تكره . .
هذه التفاصيل لا يحق أن يعرفها إلا رجلٌ واحد هو ذاك الذي تُحبه ويحبها ، ولكن هذه هي الحياة . . لا تَمدّ لكَ الأشياء إلا بعد أن تُجرعكَ مُرّها . .

إننا لا نموت من الفراغ ، أو من الوحدة . . إننا نموت من أولئك الذين أرخصونا وكنا نشعر بأنهم الحياة ، لا تسألوا لماذا صارت قلوبنا رخيصة . . بل اسألوا لماذا نحن نرخص قلوبنا .

بودّي لو أنني أموت حتى تنتهي هذه الليلة السوداوية وأحيا من جديد دون أن يشرح لي أحد تفاصيل ما حدث . .

أو أتمنى لو أنني أُصاب بعطلٍ في الذاكرة لِوقت مستقطع .

تموتُ ساعةٌ تلو ساعة . . وأنا واقفٌ على قلبي !

أنتظر موعد زيارتهم حتى ينتهي هذا الكابوس الذي يأكل أحلامي رويداً رويداً ، فأنا رغم ما حدث وما سيحدث سأبقى مُتمسكاً بكِ إلى آخر قطرة حب وأمل !

فلا عجب أن تَحرمني الحياة منكِ لأنكِ أجمل منها ، ومن الطبيعي أن تَغار الأنثى . . من الأنثى!

تلومينني عندما أراكِ فأضربُ عن الكلام!

ريحانةٌ مثلكِ من الصعب أن تطرحها الكلمات في نوبةِ غزل . .

ولأنني أحبكِ بِعمق لا أرى معنى للأشياء بعدكِ . . وتبقين أجمل ممتلكاتي على الإطلاق .

تمضي الساعات . . وأنا على قيد الأمل ، أتضرع إلى الله أن لا يهبكِ إلى أحدٍ غيري . . وتبقين معي إلى أن يسرقني الموت منكِ . . .

أنا أفهم يا الله أنكَ لن تضيّعني وأنكَ الأمان وأنكَ قادرٌ على كل شيء ، اعتنِ بي يا رب .

تُباغتني رسالة منها :

«لقد وصلوا . . أرجوك لا تقلق وأنا أحتاجُ إلى دعائك»

يزداد سكوني . . رغم الرعشة التي انتابت روحي والألم الذي يطحن قلبي ، أرمي الهاتف عرض الحائط . . ثم أبكي ، أبكي دون أن أجد حضناً يحتويني ، أبحث في جوف أيامنا عن أيّ ألم سببتُه لكِ حتى أُعاقَبَ بهذا الشكل العنيف!

هل بهذا الشكل يضحون أحبتنا بنا؟ كأننا لم نكن يوماً نتشاطر معهم رغيف الحب ، أشعر أنّ الحياة رخيصة جداً . . وأنا أرخصُ منها ، وأنتِ تتركيني وحيداً كي تقضين تجربة حديثة مع رجلٍ قد يراكِ عن قربٍ ثم يُغير رأيه ويصرف النظر عنكِ بحثاً عن فتاةٍ أخرى .

أحبكِ . . وأكرهكِ في آنٍ واحد ، مُختلطة مشاعري لا أعرف بأيّ قلب أراكِ . .

بقلبي القديم الذي يحيا لأجلكِ . .؟ أم بالجديد الذي صنعَتْهُ حماقاتكِ المتكررة . .!

لا أعلم ماذا تفعلان معاً الآن ، لا أريد أن أفكر حتى لا أتهور وأفعل أشياء قد أندم عليها لاحقاً ، حياتي كانت -ولا زالت- محطة انتظار . .!

يَهطل المطر . .

فينبت في قلبي حزنٌ جديد . . لا أحد معي كي يقطفه ، حتى أنتِ لستِ معي وأنا في أشدّ الحاجة إليكِ . . مكسورٌ ووحيدٌ بشدة وأنتِ مع رجلٍ آخر ، والصمت يُخيم على شفتيكِ ، والحزن مخبأ داخل عينيكِ ، تشتهين البكاء ولكن لا تُريدين أن توضحي لهم عدم رغبتكِ بالزواج دون سببٍ مُقنع ، يا الله . . ما أبشع تلك اللحظة التي تشعر بها أنّك لست ملكاً حتى لنفسك ، ليس بإمكانكِ إدارة شؤونكِ الصغيرة كإبداء رأيك أو اتخاذ قرار قد يغيّر مجرى حياتك . . وحتى قلبك!

**

يلتهمكِ بعينيه . . ينظر إلى وجهكِ وجسدكِ ، يسرق منكِ كل تفاصيلكِ في جلسةٍ واحدة ، تزدحمين في ذاكرته مع كل فتاةٍ تَقدّم لها قبلكِ ولم تَرُق له .

يُحدد مواطن جمالكِ، ولم يَشعر قطّ بالألم الذي يتكدس داخل عينيكِ..!

رجلٌ مثله لن يجعلكِ سعيدة، لأنهُ لم يقرأ الكلمات المختبئة خلف جدار صمتكِ المبهم، ينظر إلى والدته وهو يُبدي موافقته عليكِ بعدما وصل إلى ذروة الاكتفاء لاكتشافكِ..

وأنتِ لم تبادلي أمكِ إلا ابتسامةً مجروحةً خشية إحراجها أمامهم.

ثم يُشيد سعادته وينهض وهو في كامل انتصاره بكِ.. ظنهُ أنّكِ راضية به بسبب صمتكِ، يحسبه خجلاً ورضى منكِ، يرحل ولم يخلّف إلا غبار سعادته!

تنهضين بعده بكامل يأسكِ، تترنحين حزناً إلى غرفتكِ، تأخذين حماماً صغيراً كي تُطهّري نفسكِ من نظراته وأنفاسه، وتتحسرين لأنكِ لم تكوني شجاعة إلى حدّ رفض الجلوس معه ومنع كل شيءٍ تمّ على غير قناعة، تبحثين عن هاتفكِ كي تحدثيني وتخبريني عن كل الذي حدث بينكما وتَمنحيني الطمأنينة عن رفضكِ الذي ستتخذينه...

بصوتٍ مجروح :

- أهلاً . . كيف حالك . . أتمنى أن تكون بخير

- لا تقلقي لا زلت أتنفس . . . ولكن روحي مريضة

- لا بأس عليك ، ولا تُفكر بكل الذي حدث سأقول لأمي أنني لم أرتح له ولم يَرُق لي وسينتهي الأمر برمته .

- حسناً . . ولكن هل رفضكِ يعني أنهم سوف يقبلون بي عندما أتقدّم لكِ ؟ طبعاً لا يا حبيبتي ، بل أنتِ لم تفعلي شيئاً سوى أنكِ منحتني وقتاً أطول من الحبّ والخطر . . ولكنني حقاً أتعجب كيف سوّلَتْ لكِ نفسكِ أن تجلسي معه رغم يقينكِ بأنّكِ سترفضينه مهما كان الثمن ، أخبريني فقط . . ماذا لو أننا تبادلنا الأدوار ماذا سيكون شعوركِ حيال ذلك؟

- أرجوك لا تقتلني في عتابك أنت تعلم أنني وافقت على أن أجلس معه حتى يلتمسون لي العذر عندما أرفض الرجل ، وأنت تعلم تماماً أنّكَ الوحيد في حياتي ولن أحب بعدك ، ولكن الظروف هي من تسيطر علينا لا نحن ، لو كان الأمر بيدي لكنت معك الآن أشاركك الحياة بعيداً عن هذا العالم المتوحش ، وها أنا الآن معك ، أريدكَ أن تحتويني بِحنانك وعطفك ، أريد حمايتك . . بعد أن عشت أياماً مليئة بالخطر والخوف .

- أنا أقدر لكِ هذا ولكن لا تلوميني كنت أشعر بالاختناق وأنتِ مع رجلٍ آخر تتشاركان الكلام والنظر . . وتتقاسمان المستقبل بينكما كما تحبان ، أنا أحبكِ ولا أرضى أن يراكِ شخصٌ آخر غيري . . أنتِ ملكي وحدي وأغار عليكِ بشكل جنوني من أي شيء . . أي شيء على الإطلاق .

- أنا لكَ وحدك ، وهذه المشاعر التي في قلبي لن أتقاسمها مع أحد غيرك ، أنا أعلم أنك لم تنم بشكل جيد منذُ يومين أرجوك اخلُد إلى النومِ لأجلي . . وأعدك أن نتحدث في أقرب وقتٍ بشكلٍ مطوّلٍ حتى تُصاب بالملل مني .

- هه . . ملل؟ حسناً كما تريدين

- إلى اللقاء

- إلى اللقاء . .

تغيرت أشياء كثيرة مؤخراً لم أعد أشعر أن الحب الذي بيننا كما كان ، بل مجرد شيء روتيني نعيشه ، تغيرت المشاعر . . أصبحت بليدة ، قلّتْ كمية الاهتمام وصارت قلوبنا مُعطلة لا تفرز الحنين ، منذُ زمن لم نعش ليلة مؤججة بالعواطف ، انطفأت حرائق الشوق بنا وأصبحت أرواحنا جافة ،

للأماكن وحدها سنهتف :

أين الحبّ وأيام الحنين . .

نحاول أن نلتقي كحبيبن اعتادا على تقاسم رغيف الحب معاً كعصفورين ، ولكن لا جدوى من ذلك ، شيءٌ ما يقف بيننا كأسوار شائكة ، كُلّما اقتربنا أكثر نؤذي أنفسنا أكثر ، غرباء صرنا . . والحب في القلب جثة هامدة لا نقوى على إنعاشها وإعادتها إلى ما كانت عليه .

صدقيني إنها الحقيقة المرّة أن أكون إلى جانبكِ ولا تشعرين بنبضي الذي يضرب عرض القلب ، ويكسر أجنحة الروح عندما تَكفّ عن التحليق وأنتِ قريبة كَوَريد ، هكذا أنتِ تبقين صائمةً عن الكلام وترتدين صمتكِ الجديد ، ومشاعركِ الجديدة ، صرتُ أنكر أنّكِ أنتِ . . أنتِ التي أعرفها جيداً بلهفتها المجنونة وحضورها الدافئ ، منذُ زمن لم تهديني شيئاً ، تتعامين عن جميع المناسبات التي تُحتم عليكِ إهدائي شيئاً يخبرني أنني على قيد اهتمامكِ ، أُفكر جدّياً ماذا لو يسرقني الموت منكِ غفلةً ، هل ستبكين عليّ؟ هل ستتعرضين للحرائق وأنتِ تسمعين خبر وفاتي على نشرات الأخبار ؟ هل ستتضرعين إلى الله من أجل أن يعوضني إياكِ في الجنة ؟

غرباء يا حبيبتي ، والقلب مُثخنٌ بالجراح والتساؤلات عن كل هذا البرود الذي نلتقي به . . بعد أن كنا نلتقي بقلبين دافئين نابضين بالحياة . . والحب والأحلام .

للأماكن وحدها سنهتف :

أين السنين وأيام الحنين . .

أتذكر عندما التقينا مجدداً بعد ما انطوى كلٌ منا وحده ، لا الوجوه وجوهنا ولا القلوب قلوبنا ، كلانا يجهل مشاعر الآخر . . لا أعرف تماماً أين مكاني داخل حدود قلبكِ ، هل أزاحتني نبضاتكِ وأصبحَتْ لا تجيد عزف حبي على أوتار قلبكِ؟ أم أنني بتُ على دكة احتياط الحب . .

تقولين لي بصوتٍ مبحوح :

- أرجوك لا تقل ذلك . . لقد تعبت ، لا تحمّلني ما لا طاقة لي به ، أنا - على رغم ما حدث - لا زلت أعمل جاهدةً على أن نكون معاً ، فأنا أشعر بالإحباط والتعب ، أريد أن أرتاح معك لا لأن ترمي عليّ عتبك وقسوتك دون أن تشعر بي ، فأنا فتاة ولست رجلاً حتى أستطيع أن أختار وأعيش كما يحلو لي ، ووضحت لك أسباب موافقتي على جلوسي معه ، حتى لا تشعر أمي أنني على علاقة مع رجلٍ ما ، وها أنا الآن معك أريد أن أعيش ما استطعت إلى جانبك ، فلقد أصبحَت الأوضاع صعبةً أكثر مما تتخيل ، والحياة أوصدت كل الأبواب بيننا . . .

- توقفي . . ماذا تقصدين أن الحياة أوصدَتْ كلّ أبوابها بيننا ؟

- آآآه . .

- أرجوكِ تحدثي الآن ، لا تؤجلي الأمر مهما كان موجعاً . .
دعيني أعيش كامل الأوجاع دفعةً واحدة!
- حسناً . . أختي طلبت مني رقم هاتفك ، تريد أن تتحدث معك .
- أختكِ؟ ماذا تريد مني ؟
- لا أعلم . . طلبتْهُ مني وقالت لي أخبريه أنني سأتصل به اليوم . .
- حسناً . . سأنتظرها وسأرى ماذا تريد مني ، ولو أنني أشعر بما تريده ولكن لعلّ في الأمرِ خيراً لنا . .
- أتركك الآن حتى لا يستشعروا غيابي خارج البيت طويلاً ، وأنتظر منكَ أن تخبرني بكل ما يحدث بينكما ، وقلبي معك
- حسناً . . سأخبركِ بكل التفاصيل . . وأنا رغم ما حدث وما سيحدث أحبكِ .

ذهبَتْ وهي متشبثة بخيط الأمل رغم ما تعرّضت له من ضغوطات ، لم أكن بحاجة إلى أن تُعبر لي عن التعب الذي تشعر به وعن خوفها من فقْدِي ، فملامحها كفيلةٌ بأن تخبرني عن كل الآلام الشخصية التي تعيشها .

ياه يا حبيبتي . . أكثر من نصف عقدٍ وأنتِ مرهقة وشاحبة لم تعيشي كما تعيش الفتيات البسيطات ، أعرف أنني خيّبتُ ظنكِ عندما أدركتِ أنّ كُل شيءٍ يَحُول بيننا ، ولكن ليس بوسعي شيءٌ أفعله . . فأنا والله أحبكِ وأحلم أن أفرش لكِ الأرض بالتوليب والخزامى والكثير من الورود الملونة وأصنع من صباحاتكِ أغنياتٍ تليق بِمسامعكِ ، حياتي قبلكِ وبعدكِ صحراء وأنتِ كنتِ ولا زلت «مشروع وردة» . .

وأقول لكِ هذا لا لأنكِ حبيبتي الثمينة ، بل لأنكِ أجمل النساء على الإطلاق ، وأني لا أخشى من شيءٍ إلا أن يُصيبكِ مكروهٌ بسببي ، بسم الله عليكِ مني ، لا تحزني . . فهذا الوجه والله من الظلم أن يحزن ويبكي ، وأنا لا أُضع على عاتقكِ كل

الخراب الذي حدث أو سيحدث ، بل متيقنٌ أنْ ليس بمقدوركِ
فعل شيءٍ يجعلنا أكثر التصاقاً .
وأنتِ فعلتِ واجبكِ . . وأحببتني إلى أن توّجْتِنِي مَلِكاً على
عرش قلبكِ . . قلبكِ الطيب ، وأنا مذُ عرفتكِ لم أندم مطلقاً
حتى لو سرَقَتْكِ يدُ الحياة مني ، فلقد منحتني شرف أن أعيش
إلى جوارِكِ وعلى قُوت مشاعركِ ، فهذا أصدق ما شعرت به في
هذه الدينا المليئة بالأكاذيب!
أعترف أنني اكتشفت نفسي عَبْركِ ووجدتُ ذاتي حين التقيت
بكِ . . وأعترف أنني بملء القلب أحبكِ ، وبملء الفراغ أحتاج
إليكِ ، وأولئك الذين لا نستطيع أن نعيش معهم في حياتنا . .
نعيش معهم في الكتابة ، وأنا أكتبُ لكِ كل هذا وأعلم أنهُ
قليلٌ عليكِ . . بل لا يرتقي إلى أن يصل إلى حدودكِ ، بل . .
ملء اللغة لا تفي حقكِ بما أكنّهُ لكِ ، فأنتِ شيءٌ يتجاوز
فضاءات الخيال .

تمضي ساعة . . تلو ساعة والقلب يمتلئ بالخوف . .

آه يا الله . . متى تتصل وأكفّ عن التفكير عما تُريده وتنتهي كل ارتباكاتي ، هل ستسألني متى أطلق سراح أختها وأسلّمها لأولئك الذين يبحثون عن نساءٍ جميلاتٍ بعيداً عن النظر لأي شيءٍ آخر .؟ أم أنها ستقول لي «إنكما لا تصلحان لبعض ، ويجب عليكما أن تُنهيا هذه الحكاية التي صنعتها أوهامكما»!

يا الله لا أعلم متى يحترمون مشاعرنا ويتركوننا أحراراً خارج منظومتهم القبلية . .؟

أو على الأقل . . لماذا لا يساعدوننا على أن نكون معاً كما نُحب ونريد ؟ هل أصبحت الحياة تسير عكس الرياح ؟

أم أننا نحن نجحنا في اختبار الحب وأرادوا منّا الرسوب فيه لئلا نكون مختلفين عن سائر البشر . .؟

لماذا يغلقون أبواب الحب . . وقلوبنا مُشرعةٌ له ؟

إنهُ زمن وأْدِ القلوب ، نحن نحتاج إلى أن نُبصر أكثر كي ندرك أنّ زمن الجاهلية انتهى . . أيها الجاهليون!

أسمعُ صوت هاتفي وأدعو الله أن يتمّ كل شيءٍ على أحسنِ حال .

أنظر إلى شاشة الهاتف . . رقماً أجهله ، بكل تأكيد هي ولا أحد غيرها :

- أهلاً . .

- أهلاً بك . .

- أخبرتك أختي أنني سأتصل بك دون شك ، وأود أن أتحدث معك فيما يخصّ علاقتكما

- نعم أخبرتني ذلك تفضلي؟

- أنت تعلم جيداً أنّ مشروع ارتباطكما معاً سينتهي بالفشل ، وأنّ الأبواب موصدة أمام قلوبكم قبل وجوهكم ، وتعلم أنّ والدي لن يوافق على كل الذي تفكران به ، إنهُ لن يقبل بأيّ رجلٍ آخر لا تربطنا معه أي علاقة ، وأنت لا تربطنا معك أيّ علاقة حتى ولو سابق معرفة من بعيد ، لذلك أرجوك أن تُنهي هذا الأمر الآن ، وتُفكر جدّياً بالانفصال عنها إن كنت حقاً تُحبها وتُريد لها الخير ، فلا تكن عثرة في طريقها ، وأرجوك أن تجلس مع نفسك وتُفكر . . لأنكما تُضيعان وقتَيكما في شيءٍ لن يكون ، أنا أتمنى أن تكونا معاً . . ولكن أعرف والدي جيداً

-ولو تآكلْتَ- لن يقبل ! ولأنني أعرف أنّكَ رجل طيب لا أريد أن تُوهم نفسكَ وتُضيع بقية حياتك في شيءٍ لن يكون ! أنا انتهيت من الذي أود أن أقولهُ لك ، فإن كان لديك شيء أرجوكَ تفضل ؟

- أقول ؟ ماذا عساي أن أقول ؟ لم تتركي لي شيئاً ، أغلقتِ كل نوافذ الأمل ورميتِني في اليأس المُكبل ، أقول ماذا أقول . .؟ هل أشكو إليكِ عن الأذى الذي سبّبْتِهِ لي ؟ أم أُعبر لكِ عن كامل حبي لها حتى تقفي معنا في أزمتنا . . ومصيبتنا؟

- أرجوك لا تَحْكُمْكَ عواطفك ، بل فَكر بعقلك

- أرجوكِ دعيني أتحدث ، فنحن في زمنِ تجارة الحب . . ولا تُقاطعيني فلقد تمكّن البؤس مني ، وماتت إرادتي وأنا أسمعكِ . . وليتني لم أسمعكِ ، بودّي لو أنني أنسحب دون أن أحدث ضجيجاً والكثير من الحرائق التي ستلتهب في جوفها ، وأنا أهرب منها كَلِصٍّ نسى أنّ السرقة حرام ، وأنا والله أرى أنهُ من الحماقةِ أن أتركها بعد أنْ بكينا وسهرنا وعشقنا بعضنا أكثر من نصف عقد . . أكثر من نصف عقد ، وتجيئين إليّ تطلبين منّي أن أنهي كل الذي حدث بيننا في لحظة . . في لحظةٍ تريدين منّي أن أنهي كل هذا ! هل تعلمين لو تقولين لها

«طلبتُ منه أن تفترقا» ماذا سيحدث لها ؟ عندما تنظرين بملء مشاعركِ إلى اتساع الحزن الذي سينام في قلبها ، ستدركين حقاً كم أنتِ مؤذية ! أنا حقاً لا أستطيع أن أطلق سراحها للفراق وأجعلها رهينة البكاء المُزمن ، ولكن اليوم فقط . . أستطيع أن أبكي دون أن يلومني أحد ، ثم أطبطب على صدري وأنام ببراءة الأطفال دون أن أشتم أحداً أو أوبّخ أصدقائي ! أرجوكِ لا تبكين ، أعلم أنكِ طيبة القلب وأنّكِ مسؤولة عنها وتريدين لنا الخير ، ولكن مَن يملأ الفراغات بعدها ويترس القلب ؟ هي وحدها من صيّرتني إنساناً عاشقاً ، حنوناً ، يُداوي أوجاع الناس عندما يُصابون بوعكة حب ، ويعرف كيف يشرح للآخرين سوء البشر الذين لا يعرفون كيف يهتمون بأحبتهم ، أرجوكِ قولي لي ولو كذباً أنّكِ لستِ صادقة في طلبكِ هذا! تُلملمين دموعكِ وتخبئين تنهيدتكِ وأنتِ تقولين لي «أريدُ لكما الخير ، ويجب أن تُوقفا علاقتكما حالاً ولن أقبل بالمساومة على هذا»!

- حسناً . .أريدُ منكِ شيئاً صغيراً فقط وسأوافق . .
- ماذا ؟
- أمهلينا بعض الوقت حتى ننهي كل الذي بيننا تدريجياً ،

فمن الظلم أن ينتهي كل شيء في لحظةٍ واحدة/ أرجوكِ . .
بعض الوقت فقط!

- حسناً ، أسبوعاً . . وبعدها لن أقبل مهما كان الأمر ، ولكن
تعدني أن ينتهي كل شيء؟

- إن شاء الله

- حسناً . . أتركك الآن ، وسامحني على هذا الاتصال المتأخر ،
إلى اللقاء

- لا بأس . . إلى اللقاء

أجلس وحيداً . . والحيرة تأكلني ، أقضي وقتي في مواجهةِ أشدّ أنواع الندم ، أقبض على قلبي بأصابعي الخمسة . . وأوبخهُ بكلّ ما أوتيت من كراهية :

- أنت السبب في كل ما حدث ، كان بالإمكان أن تتجاوزها كما تجاوزت الكثير من النساء ، وعشنا سوياً معاً أنا وأنت أيها القلب المتدفق حباً في فتاةٍ لن تُطعمك قوت مشاعرها ، ستموت أيها القلب جوعاً ، وسأقضي بقية العمر في تجميلِ شروخك ، آه لو أنّكَ أغلقت كل الطرقِ المؤدية نحوها وغيّرْتَ وجهتك .

يا الله وحدكَ تعلم أنّ امرأةً مثلها من الغباءِ أن تمر مروراً عادياً ، لذلك شرعت لها صدري وتركت لها باب قلبي مواربا إلى أن تعرضنا سوياً «لحادث حب» ، ولكننا نسينا أنّ القلوب وحدها لا يمكن إصلاحها !

أيّ سحر كنتِ تحملين معكِ عندما الْتقتّ أعيننا أول مرة؟

أتذكر جيداً الفيضانات والانكسارات والشروخ التي كنتِ سببها في العمق ، كنتِ تمشين فوق تربة القلب مسببةً له الكثير من التشققات ، وأيّ رعشةٍ انتابتني وأنتِ تبتسمين لي ، لم أكن أتخيل أن رجلاً مثلي يستطيع شّد انتباهكِ وأنتِ مشغولةٌ في كثير من الأشياء التي ستنجزينها ، والتي تموت شوقاً لانتظاركِ!

في اللحظة نفسها . . كنتُ أعلم أنهُ ينتظرني الكثير من الحبّ والتغييرات والكثير من الخطر . . فمن الصعب استدراج امرأة مثلكِ إلى مصيدة الحب !

كنتُ أعرف أن الإنسان الذي يعجبنا ليس شرطاً أن يُبادلنا الإعجاب ، ولكن كتَبَ لنا اللهُ أن نعيش معاً بعض الوقت ونفترق ، والله لا يظلم أحداً . . إنما البشر يَظلمون .

أقفُ أمام المرآة . . أنظر إلى نفسي ، ياه كم أبدو شاحباً ، كيف سأتصل وأخبرها عن الذي حدث بيني وبين أختها وكيف سيكون مصيرنا؟

يجب عليّ أن أتصل وأخبرها مهما كان الأذى ، فهذه حقيقة يجب أن نعيشها مهما كانت موجعة ، وهي بكل تأكيد تتطلع لمعرفة ما حدث .

- أهلاً

- أهلاً بكَ . . أرجوك اقتلني ، أو أعِدْ لي الحياة

- حسناً . . سأُعيد قتلكِ :

أما بعد . . أنا أعلم أنّ موضعي في حياتكِ لم ولن يتغير . . ولكن الناس والحياة والظروف تُحتم عليكِ أن تركليني من قلبكِ وتعيشين كما تعيش الفتيات البسيطات ، المسكينات اللاتي لا يملكن حياتهن وقرارتهن ، ويجب عليكِ أن تنصاعي إلى الواقع مهما كان مُراً ، فهذه الحياة لا تُعطي من يعطها في أوجع الأحيان ! ومن كان يقول لكِ أن الحب فوق كل شيءٍ فهو كاذب ، فالحب في الصفّ الأخير في حياة البشر ، وأنتِ لستِ إلا فصلاً جميلاً في حياةِ رجل بات في مستودع خيباتكِ اليومية !

لن أقول لكِ لا تبكي ! لا تُخبئي انكساراتكِ واحتضاراتكِ الصغيرة ، اليوم فقط أريدُ منكِ البكاء حتى تغسلي قلبكِ مني

ومن أوهامكِ ومن كل شيءٍ يربطني بكِ ، وأنتِ تعلمين أنْ لا أحد يشبهكِ في حضوركِ وفي غيابكِ ويبقى الناس سواسية في مجيئهم ورحيلهم ، إلا أنتِ تبقين كما أنتِ ، ترحلين وتعودين لا تغيرني عنكِ الأيام وليالي النسيان . . وحدكِ من تقف للذاكرة بالمرصاد . .!

ليست القضية قضيتكِ ، بل كل ما في الأمرِ أنني أحببتكِ دون ترك خط رجعة ، ودون أن أُمهد لنفسي رفاً للنسيان كي أُلقي وجهكِ به وأنساكِ للأبد . .

وماذا لو أنني لم أستطع تركك ؟

ماذا أقول لأختكِ عن الوعدِ الذي قطعتهُ لها خوفاً من أن تجلب لكِ الكثير من المتاعب والمصائب .

هي لا تعلم أنكِ رغيف القلب وأنّكِ الضوء حين تضيّعني الدروب في العتمة ، ولا تعلم أنني أعيش فقط لكي أحبكِ وأهتم بشؤونكِ الصغيرة والكبيرة ، ومن كل شيءٍ قد يَضُركِ ، ولا ألومها من خوفها عليكِ مني ، لأنها لا تعرف كم أنا أحبكِ ، ولا تعلم أنني عبارة عن وطنٍ صغير يحتويكِ عندما يداهمكِ جُنود الأحزان ، ولا تعلم أنني درعكِ الذي يحميكِ من كل شيءٍ . . على الإطلاق!

كنتُ أعلم يا حبيبتي أن لحظة كهذه ستأتي ، وأننا سنفترق في لحظةٍ فراق مجنونة ، أتألم كثيراً عندما أُفكر بها ، والألم كلّ الألم . . أن أعيش بعيداً عنكِ وأنتِ في مكانٍ آخر في هذا العالم المتوحش .

أنا أعرف أن الفراق لن يطلق سراحي من قلبكِ ، ولكن سيعلمني كم هذه الحياة لا تستحق حين لا نعيشها مع من نُحب .

ابكِ بشدةٍ أرجوكِ . . هذه هي الحقيقة المُرة !

أنني رجل مسكونٌ بالأحلام . .

وأنتِ امرأة مسكونة بالأوهام . .

هكذا نحن . . فُرِضَ علينا بالإكراه ألا نكون معاً !

أحبكِ جداً . . ولا أحتاج إلى ثلاثةِ أيام للبكاء والعزاء بعد فراقنا . . فلقد بكيت طويلاً . . . دون أن يكترث لي أحد أو يربّت على كتفي !

- هل أنتِ معي ؟

من فرط بكائها لم أفهم كلماتها التي تتفوّه بها . . تقولُ لي :

- اصمُتْ . . لا أريد أن أسمع حتى صوت أنفاسك

- حسناً، تحدثي وسأصمت..

- هل أنت مجنون... كيف أستطيع أن أعيش دونك؟ ولماذا تقطع لها وعداً أنّكَ ستتركني، ألهذا الحدّ أنا رخيصة في قلبك؟ دعها تفعل ما تريد ولكن لن نفترق.. فأنا أحبّك، والله أحبك ولا أقوى على فراقك، وإن افترقنا وحدث لي مكروه أنت السبب ولن يُسامحك قلبي!

- هل تظنين أنني لا أريدكِ؟

أنا أحبكِ بكلّ الأشياء المختلفة والمتخلّفة، وأين سأهرب منكِ؟ إنّكِ تُلاحقينني في كلّ مكان كظلّي الذي لا يفارقني، ولم أعرف لذةً للحياة قبلكِ، ولكنني أخشى إن لم ننصَعْ لطلب أختكِ عندها سأسبب لكِ الأذى والكثير من المشاكل.. وأنا والله أخافُ عليكِ حتى من نفسكِ، وأنتِ لا تجهلين حبي لكِ، تتذكرين جيداً كيف كنّا نلتقي بقلبين نابضين بالحب وأجمل ما يكون بيننا الصمت.. الصمت المطبق، وقلوبنا تتبادل الكلام!

أنتِ لا تجهلين كل شيء، وتعلمين كل ما يحدث في الأعماق من أذى حين لا أكون إلى جواركِ وبين يديكِ الحانيتين.. ولكن فُرض علينا أن ننهي كل شيءٍ بالإكراه!

ولأننا محمّلون بالماضي نحن لا ننسى . . ونهمس لقلوبنا في الخفاء والبكاء «لا يزال هناك متسع من الألم والأمل» وقد يتغير كل شيء في لحظةٍ دعاءٍ بظهر الغيب . . أنتِ التي كنتِ تعلّمينني وتقولين لي «لا تخف ، لن يضيعنا الله» وأنا أؤمن أن الله سيكون معنا ، ولا تخافي من نسياني!

لن يأخذني شيءٌ عنكِ إلا الموت . . فأنا لا أستطيع مشاركة الآخرين فقد اعتدت عليكِ ، ومتوحدٌ بكِ وفائضٌ بكِ . . ولن أسمح للدخلاء ، سأوصد باب قلبي بالشمع بعدكِ !

امرأة مثلكِ . . لا تُعوّض ، لا تُعوّض ، لا تُعوّض . .!

وفي ودّي لو أنني أبقى معكِ إلى آخرِ العمر ، ولكن ماذا أقول لبائعة الفراق . . حين تسألني عن موعد فراقنا؟

- لا عليك . . اكذبْ عليها أرجوك وقل لها أننا افترقنا ، أريدُ أن أكون معك ، فالحياة بعدك لا تُطاق . .!

- أنتِ تعلمين . . أنني لا أُجيد قفز النوافذ معكِ ! بل أبحثُ عن بابٍ يُدخلني إليكِ وآخذكِ من بين الجموع وهم ينظرون إليّ وأنا أضع خاتم الزفاف حول أصبعكِ حتى يكون الله راضٍ عنا قبل الناس . . يا أجمل الناس وأطهرهم .

ونسيتُ أن أقول لكِ شيئاً مهماً . . لدينا أسبوعٌ حتى أخبرها أننا افترقنا . . أنا أعلم أنّ المُدة قصيرة جداً ولكن قد تستجد وتتغير أشياءٌ كثيرة خلال هذا الأسبوع ، من يدري؟ أريدُ منكِ أن تطمئني وتتضرعي إلى الله كثيراً لأجل أن يُهوّن علينا مصيبتنا ثم تنامي ، فالتعب استولى عليكِ ، وسنلتقي مجدداً بأملٍ جديد وقلب يملؤه الإيمان . . ويجب عليكِ أن تؤمني أن كل شيءٍ مكتوب . .!

- حسناً سأنفذ ما طلبته مني . . وأرجوك أنت أيضاً اخلُدْ للنوم لتستريح . . .

- إن شاء الله

- إلى اللقاء

- إلى لقاءٍ قريب . .

للأماكن وحدها سنهتف :

أين السنين وأيام الحنين . .

مضى يومان . . ولا أحد منّا يعرف شيئاً عن الآخر ، وكأننا نُبدي رضوخنا للواقع مع يقينٍ أننا لا نستطيع أن نفترق ، ولكن الأيام كفيلة بأن تُغير قلوبنا قبل وجوهنا . .!

أُفكر مليّاً كيف أستطيع العيش دون سَماع صوتها وآخر أخبارها وأين وصلت وكيف ستكون ، ماذا لو أننا افترقنا واجتمعنا صدفة في مكانٍ ما ، ماذا سيحدث؟
هل سنشتاق إلى خرير الحنين التي تُصبّه وديان أرواحنا ؟
ونتذكر في لحظةٍ واحدة كل الذي كان بيننا من ذكريات وأغانٍ وليالٍ مُرصعة بالحب؟
لا زلت أذكر لقاءنا الأول وامتداد علاقتنا منذُ البدء . . كان شيئاً لا يوصف ، أم تظنين أننا سنلتقي كغريبَين دون أن نشعر

بضـجـرِ المكان والتـعـرض للبكاء وسط الزحـام والناس الذين ينشغلون بأنفسهم!

ماذا لو أنني أراكِ بعد سنوات وأصابعكِ تتخلل أصابعَ يد رجلٍ آخر وبينكما طفلٌ صغير؟
هل بالإمكان أن تعبثي بحُلمكِ معي وتُهديهِ أحداً غيري؟ أو قد تُسمين ابنكِ باسمي لحفظ ماء قلبكِ!

آه . . يا الله لماذا الحياة تفعل بنا هكذا ولماذا نُؤهل عقولنا لهذه الأفكار؟ هل حقاً البشر بهذه الحماقة من التفكير؟
يستعصي عليّ فهم البشر ، لماذا في وجوههم البياض وفي قلوبهم القتام؟
لماذا نحن نعيش وسط الكثير من التخلف والتشدد القبلي؟

أعـرف أنني أزيدكِ توبيخـاً وأنتِ لستِ مـذنبـة ، ولكنني لا أستطيع أن أتخيل الحياة بعدكِ . . فالأشياء التي نحبها من الصعب أن نُضيعها من بين أيدينا بسهولة .

الساعة الواحدة والنصف تحديداً بعد منتصف القلق ، بيدي فنجانٌ نصفهُ غيابكِ ، ونصفه الآخر بَحْثي الأزليّ عن استقراركِ في حياتي الفارغة ، أحدّق حولي والمكان مُفخخ بالحنين ، كل الأشياء في غرفتي تشي بكِ ، صورتكِ المُخبأة تحت وسادتي طمعاً في زيارتكِ فوق أجنحة الحلم ، وزُجاجة عطركِ على أريكتي ، وصندوقي الذي يحتضن بعض صوركِ وكل رسائلكِ ، ولا زلت أحتفظ بآخر قطرات دموعكِ على منديلٍ سقط منكِ ذات ألم . .!

مشوشٌ وفوضوي كطفل لا يستطيع ترتيب نفسه ، ومن يستطيع ترتيب مشاعره وهو يعيش عبثيّتَه؟

أجلس أمام مرآتي ، أُحاول إيجاد نفسي كي أعتقلها . . فأفشل ، أكتشف أنّ الحبّ شكلٌ من أشكالِ الحرية . .!

في الحب :
لا تملك نومك
سفرك
استقرارك
أعمالك ،
حتى نفسك !

كم نحنُ سُجناء عندما نتعرض لجريمة الحب . . يبقى حكم مَن نُحب مُتلبساً بنا إلى أن يطلق سراحنا للغياب . . الغياب الأبدي الذي لا يدلّ وجه اللقاء .

**

يكفيني أن أستحضرك أمامي عوضاً عن كل شيء . .
اسمي أنتِ ، جلدي ، تُربتي ، انتمائي ، عائلي ، قبيلتي ، عُمري الباقي ، وذكرياتِ القادمة أنتِ . . رغم أنف النسيان !

وأحبكِ وأنتِ في الغياب . . تبحثين عن نداءاتي وأنتِ تقفين

على حافة الأمل ، أشعر بفزعكِ وأنتِ تعيشين خلف أسوار الوهم تُفكرين بقلب طفلةٍ لم تفهم الحياة بعد ، كل هُمومها أن تمتطي حصان الحلم وتهرب مع عشيقها بعيداً عن الثأر والهمجية وعار القبيلة والأسماء القديمة الغير مفهومة بالنسبة لها .

أتذكر عندما كنتِ تقولين لي :

- هل هُناك عقولٌ ممتدة من عصر الجاهلية إلى الآن؟

وكُنت أقهقه . . ليس سخرية منكِ ، بل لأنكِ بريئة ولم تعيشي بعد حتى تموتي من جهلِ بعض الناس المُمتد إلى يومنا/ حزننا هذا . .!

دعينا من العالم . . وقولي لي :

- ألم ينضج قلبكِ حنيناً بعد ؟ فقد حان موعد قطاف أشواقنا . . وأحبكِ والله جداً لدرجة أنني أشعر أنّ عقلي سيعلن جنونه!

بعد مرور أربعة أيام

أستيـقظ من نومي وقبل أن أقصـد أي شيء ، أُمسكُ هاتفي وأجد مكالمة منها ، وعلى وجه الشوق أتصل بها :

- صباح الخير
- أهلاً ، صباح النور
- كيف حالكِ؟ أتمنى أن تكوني على ما يرام
- الحمد لله بأحسن حال
- لماذا تأخرتِ ولم تسألي عني منذُ أربع أيام؟
- تُجيبني بلا مبالاة . . وترمي الأعذار على عاتق الظروف!

- تُخفين عني شيئاً ، قولي لي ما بكِ ؟
- ألم تفهم؟ قلت لك بعض الظروف
- لماذا تتحدثين معي بهذه الطريقة ؟
- لم أقل شيئاً ، ربما يتهيأ لك أنني لستُ على طبيعتي!

- حسناً . . . ألم تشتاقي لي؟ ألم تفقديني؟

- بكل تأكيد اشتقت إليك . .!

- ألم تتحدث أختكِ معكِ؟

- لا لم تتحدث معي حول علاقتنا

- حسناً حدثيني ، ماذا فعلتِ في غيابي وكيف كنتِ تعيشين دوني؟

- لم أفعل شيئاً ، كنت أقضي أغلب أوقاتي في مشاهدة الأفلام ، ولم أمت في غيابك ، ولكنني كنت حزينة بعض الشيء . . . وأنتَ ماذا فعلتَ في غيابي ؟

- أنا . . كنتُ أعيش أيامي في جفافٍ وكنتُ أحد الساهرين في ليل ذكرياتك ، أتجرع مُرّ انتظاركِ . . وأنتظركِ بينما العالم يغوص في نومٍ عميق . .!

- أنا أعتذر لأنني تركتكَ بهذا الشكل لأيام وسوف نعتاد إلى أن نتغلب على قلوبنا

- لماذا تقولين هذا وكأنّ الفقد أمرٌ عاديٌ بالنسبة لكِ؟

- لا ليس عادياً . . ولكن الحياة تنتظرنا ، وهُناك أشياءُ أهم من الحب والوهم الذي نعيشه!

- نعم صدقتِ . . ولكن هذا في نظركِ أما أنا ، فإني أراكِ أهم

من الحياة بأسرها

- لا نُريد المبالغة أكثر أرجوك . .

- مبالغة . .؟ فمنذُ غيابكِ وأنا أجيد موهبة البكاء ، ولكنني أشعر وكأنكِ بدأتِ تنكرينني . . ولكن لا ضرر في ذلك فأنا من أولئك الذين يواجهون خيبات الحياة والأصدقاء بابتسامة .

- أنا لا أنكرك . . . ولكن بدأت أفكر بشكل آخر . . وأننا نسير خلف السراب ولن نصل إلى نتيجة ، وقل لي هل تريد أن نَشيخ ونحن على هذا الحال؟

- بالنسبة لي . . لا يهمني العمر إن لم يكن معكِ ، وأفضّل أن أعيش الحياة وحدي على أن أشاركها امرأةً غيركِ ، ولكن لا تقلقي سأعتني بحزني .

- أقدر لك هذا وأنت تعرف كم أحبك وأتمنى أن أعيش معك ، ولكن كلانا يعلم أن هذا لن يحدث مهما كان .

- تحبينني؟ بدأت أشك بذلك ولكن لا أستغرب ، فأكثر الذين نحبهم يرحلون دون أن يتركوا لنا سبباً مقنعاً لرحيلهم .

- لا شيء يدعو للغرابة ، فهذه الحياة يجب أن نتقبلها في حلوها ومرها .

- لا بأس . . إذن اعتني بقلبكِ لأجلي

- حسناً . . وأنتَ أيضاً ، أعتنِ بنفسك ، ليس لأجلي ، إنما لأجل الذي كان بيننا

- حسناً . . إلى اللقاء

- إلى اللقاء

أغلقتُ سماعة الهاتف وأنا في قمة دهشتي . . يداي ترتعشان ، جسدي بارد ، قلبي موجوعٌ حتى التهلكة ، ولا أستطيع أن أستخرج فكرة واحدة من عقلي تُبرر لي كل ما جاء منها!

أدركت حينها أنّ الذين يبكون على الدوام دون أن نستطيع إسعادهم ، يتعاطون الحزن ولا يمكنهم الإقلاع عنه مهما حاولوا!

يؤلمني أنني لم أفهم منها هذا التجرد الفجائي ، وما يزيد الألم أنها لم تترك لي سبباً مقنعاً حتى ألتمسه لها ، بل إنها لم تهتم البتة فيما سأواجههُ وحدي بعدها ، تشوّش كل شيءٍ أكنهُ لها وملأت تشققات الذاكرة بغموضها . . .

ولأنني حزينٌ منذُ نصف عقد معكِ . . بل منذُ أدركنا أننا خطان متوازيان لا يلتقيان أبداً ، كان بالإمكان أن أُشيد مشاعري وأفرّ عنكِ ولكن ثمّة أشياء تمنعني وتُعيدني إليكِ ،

وجهكِ العالق في ذاكرتي ، كلمة أحبكِ المدسوسة في جوفِ رسالة قديمة تحتفظين بها ، حكاياتنا وصباحاتكِ المفعمة بالحب ، قصصنا الوهمية عن أطفالنا الذين اخترنا أسماؤهم معاً!

ورغم كل ما عانيتهُ معكِ . . تهربين مني دون أن تعيشي معي حتى نهاية الأسبوع الذي منحتنا إياهُ أختكِ!؟

لا أعلم من يُريد الخلاص من هذه الحكاية . . أنتِ أم هي؟
بدا لي وكأن الأمر مُخطط له ، هكذا أشعر ولا تلوميني ، ما فعلتيه لم يترك لي سبباً مُقنعاً أبداً!

ما أثقل الساعات ، بطيئة جداً وعيناي يُطوّقها السواد ، مُتعبٌ في غيابكِ ، وأشدُ تعباً أصبحتُ في حضوركِ ، كان بالإمكان أن تستمري معي فقط يومين وتكون أختكِ هي السبب ، ولكنكِ أخطأتِ حقاً في عكس كل شيءٍ ضدكِ أنتِ .
أنا أعلم أنّ ما فعلتُه لأجلكِ طيلة هذه السنين لا يجعلكِ تُعاقبيني بهذا الشكل الغريب ، أنتِ التي كنتِ تقولين لي

«خذني من معصمي لنهرب معاً لمدينة ٍلم يطأها بشر» أجدكِ الآن تهـربين وحـدكِ وأنتِ تلوّحين لي بقلبكِ دون أن تمسكي يدي وتهربين بي!

آه . . ما أوجع أحبابنا حين يُصبحون غريبي الأطوار والمشاعر . .

اليوم السادس

القلب مذبوح على آخره . .
ومن يقتل القلب غير سُكانه؟

آه يا رفيقة أحلامي ، كنتُ أشعر أنّ العمر مهما طال في مهب اليأس . . يستحيل أن تتركيني رهين الغربة وجفاف العاطفة وتُسْلِميني للمنفى ، وأنتِ هاربة تُخلّفين وراءكِ الكثير من الألغام والدروب الوعرة والتساؤلات التي تنهش عظامي!

كنت أحلم أن أغزو العالم وأنا أحملكِ في صدري ، وأنشد أغاني حبكِ وقصائد ليست لي ، ولكنّ العاصفة لا تترك خلفها إلا الحطام . . الحطام!

ألفظُ روحي مني ، وتبقى مستقرة . . والصبر عبادة القلب ، وأين القلب بعدكِ ؟

من خيوط أيامي نسجتُ حكايتنا بعد ما كنّا فارغي الحلم والحب . .

وأبقى وحدي في منتصف الطريق أبحث عن أحدٍ يُصلح انكساراتي الداخلية .

.

وحيداً بقيت . . أجمعُ هزائمي الصغيرة ، وأطلق الشتائم كُلما تذكرتكِ ، ولأنني أضعف من هذا الرحيل الثقيل أجهشُ بالبكاء إلى أن تجف عيناي . .!

أحبكِ . . ملء تساؤلاتي بعدكِ

أعلم أنكِ تحبينني إلى حدّ الموت يا حبيبتي ، وأعلم أنهم أخذوكِ مني رغم قلبكِ . . .

أحبكِ . . وأعلم أنّكِ لن تهجريني مهما كان الثمن ، أثق أنّكِ ستعودين بكامل دفئكِ ، أسرعي . . فالحزن يتسعُ على آخره!

أننسى ونبدأ حياة جديدة ؟

وهل كل إنسانٍ يستطيع أن يختارَ لنفسه حياةً أخرى كُلما اكتشفَ أنّ حياته التي يعيشها غير صالحة !

أما أنا قاومت معكِ الفقر والقبيلة والوطن ، والأشياء التي لا أحبها فيكِ . . وفي آخر المطاف أُدفن بهروبكِ الغير مُبرر ؟

**

تُهرول الساعات وكأنها ضدي ،

هكذا أنا اعتدتُ أن أواجه الحياة وحدي . .

أمسكُ هاتفي ، أفتحُ رسالةً جديدةً وأكتب :

«مساؤكِ خير أيتها الحبيبة الغالية ، أنا لستُ بخير في غيابكِ ،

أشعرُ أنّ أيامي بائسة وفارغة . .

وكما يقاوم الفقراء جوعهم ، أُقاوم آلامي ، وقطعتُ أشواطاً من الحنين إليكِ ، مزّقني اليأس بَعدكِ ، أصبحتُ رجلاً غير مرغوب به في الحب ، لأنني معكِ استنزفت كامل عواطفي القلبية ،

وتذكـري أنّكِ نسـيتِ شـخـصـاً يحـتـضن وسـادته ويبكي وحيداً . . .

سـأنام الآن . . وأغـمض عـينيّ وهي تحـتـضن صـورتكِ علّكِ تأتيني في الحلمِ ، أحـبكِ . . والقلبُ مـذبوحٌ على آخـرهِ بَعـدكِ» .

مرّت أكثر من ثلاثٍ ساعات حتى استيقظتُ على رنين هاتفي ، فامتلأ القلب بالنبض . .

تقولَ لي دون مُقدمات :

- ما بك؟ هل أنتَ بخير؟

- حزينٌ في غيابكِ

- وأنا أكثرُ حزناً منك ، هل تعتقد أنني لا أحبك وأنني لا أريدك؟ هل جُننت ؟ كيف تشكّ بحبي لك . . أنا أموت وأنا بعيدة عنك ، أشعر أن الحياة أضيقُ من قبر!

أقول لها بدهشة :

- طالما تشعرين بالضيق في غيابي ، لماذا لم تتصلي؟ ولماذا اخترتِ الرحيل قبل أوانه . .؟ هل تعلمين أننا الآن في اليوم الأخير وأختكِ ربما تتصل بي اليوم . .؟

- اسمعني . . لأنني أحبك حقاً لا أريدك أن تُضيع باقي عُمرك معي دون أن نستطيع العيش معاً ، أريدك أن تبحث عن

حياة جديدة وامرأة أخرى تعيش معها وتنجب منها الكثير من الأطفال الذين سيلعبون ويكبرون حَولك ، أنا أعلم أنّك تحلم بهذه الأشياء ، فأنا والله أخشى عليك حتى مني ، ولا تشك أنني لا أود البقاء معك فأنا منذ آخر مكالمة بيننا لم أذق طعم الراحة ، وتغيّرت حالتي إلى الأسوأ ولم أخرج إلى أي مكان ، صار النوم والبكاء أفضل أصدقائي .

- أما أنا لا أود امرأة غيركِ ، ولا أريد أطفالاً ، فأنتِ حبيبتي وطفلتي في آنٍ واحد ، أقول لكِ الكلام هذا وأنا والله جاد ، لا أريد شيئاً سواكِ ، وماذا يعني لي العمر إن خسرتُ فرصتي في الحب معكِ؟ فأنا لم أكن أتقدم معكِ بالسن إنما بالمشاعر ، فأجمل حياة هي ما ننفقها بالحب لا بالعمر ، وأنتِ سيدة الحب . . لا تجهلين معنى أن يعيش الإنسان من أجل من يُحب!

- أحبك . . وأعدك لن أتركك مرة أخرى ، ولكن يجب أن نرى الحياة بشكلٍ مختلف ، فلا يصح أن تعيش في ضفةٍ وأنا في ضفةٍ أخرى ، إن لم يكتب لنا الله الزواج . . يجب أن نضع حداً لعلاقتنا ، وهذا ليس من أجلي إنما من أجلك أيضاً ، إنْ لم نُبقِ قصة حبٍ جميلة ، سنكون ذكرى جميلة نتذكرها مهما طال العمر بنا!

- هل تعتقدين أنني سعيد بهذه العلاقة الناقصة؟ أنا والله مستاء وأود أن نعيش حياة طبيعية خالية من الشوائب والتعاسة ، ولكن أؤمن أنّ الله سيجعل لنا مخرجاً ، وأنهُ سيكون معنا ما دامت أرواحنا نظيفة وقلوبنا خاشعة لله ، وقد تتغير الأفكار الراسخة لدى أهلكِ وننجح في الحب ونكون معاً كجسدٍ واحد . . دون أن نتعرض للكثير من الشروخ .

- أنا مؤمنة أن الله لن ينسى عبدهُ ، وسأدعو الله أن يهبني إياك وأعيش العمر . . كل العمر معك ، ولا تشك في حبي لك ، فأنا أحبك بالقدر الذي تحبني . . وربما أكثر ، وأرجوك حدثني عندما تُحدثك أختي ، وكن هادئاً كما عرفتك ، وأريدُ أن أنهي المكالمة قبل أن يراني أحد فالوقت مُتأخر .

- حسناً . . أستودعكِ الله أيتها الغالية

- إلى اللقاء

لا أعلم كيف لشخصٍ ما ، يجيء إليك ويمسح كل حزن تشعر به فقط لمجرّد أن تسمع صوته ، جزءٌ كبير من سعادتنا مُرتبط في شخصٍ ما في هذا العالم الواسع ، اللهم لا تحرمنا من أحبابنا .

مُنتصف اليوم السابع

كيف تغيبينَ من الغيابٍ ؟
وأولئك الدخلاء لا يزالون ينتظرون أي فرصة ليأخذوكِ مني دون أن يهتموا بما سيحدث لنا ، من الأخطاءِ التي لا تغتفر أننا نتعلم كيف نحب وكيف نشتاق وكيف نُخلص ، ولكننا لا نتعلم كيف ننسى حين يَحُول الفراق بيننا وبين الذين نُحبهم . . .

بودّي لو أنني أقتنع أنّ الحب فصلٌ يعيشهُ المرء ثم يغادره ، ولكن ما أشعر به معكِ مختلف جداً وكأنّ العمر وحده لا يكفي كي أعيشه معكِ ، أشعر أنني أحتاج إلى عُمرٍ لا ينتهي ، أتذكر أنّ الحب أخرجكِ من خوفكِ وأنتِ تُشيدين ذكرياتكِ وتَختارين الرحيل الأبدي ، فكيف يكون الحب فصلاً ؟

لماذا يحاولون أن يصنعوننا من الأشياء التقليدية!؟

لماذا لا يؤمنون أن الاختلاف لا يفسد بالقلب حكاية!؟

هل من العدل أن نُحرم أنفسنا ممن نُحب هكذا!؟

متوحشون أولئك الذين يحيلون بيننا ، أشعر وأننا قصة حب في

زمن الجاهلية !

يرنّ الهاتف ، يرتعش القلب رعباً . .

أنظر إلى شاشة الهاتف . . آه يا الله ما أسوأ أن يجيئك اتصالٌ يخبرك أنّك ستفقد شخصاً ما . . كم تبدو الحياة تافهة . .!

- مرحباً

- أهلاً بك . . كيف حالك؟

- لا أعلم هل تظنين أنني سأكون سعيداً ؟

- لا بأس ليس مهماً أن نكون سُعداء . . جئت أخبرك فقط أن أسبوعاً قد مضى ، وأردتُ أن أذكرك أن هذا آخر يوم يجمعكما معاً ويفترض سَلَفاً أنكما أنهيتما كل شيء ، صدقني . . أنا لا أريد لكما ذلك ولكن هذه هي الحياة تُحتم علينا أن نتقبلها حتى نستطيع أن نعيش بشكلٍ جيد ، وأهتم كثيراً لشأنِ أختي ، وأودّ أن تعيش حياتها طبيعية كما تعيش الكثير من الفتيات ، ولا أريد أن تذهب حياتها هباءً منثوراً ، في حبٍ لن يكون . وأنا أعلم أنّك رجلٌ صالح وتحبّ الخير لها وتتمنى لو أنها تؤسس حياةً جديدة مليئة بالسعادة والمستقبل المشرق .

- نعم صدقتِ . . أنا أحبها وأتمنى أن تعيش كامل حياتها مع من تُحب لذلك أرجو ألا تُصاب بالحزن المُزمن بعدي . . وحقيقةً مُرّةً أقولها لكِ «أنا لا أستطيع أن أكون بعدها شيئاً ذا قيمة ، سأكون عبارةً عن رجل فارغ تماماً ، سأتعرض للكثير من الخراب ، ولا أعرف حقاً هل سأسلمها للفراق وأستسلم ، أم أبقى معها دون أن أخشى عليها منكِ ومن ما سيحدث لها» . . أنا من فرطِ حبي لها لا أستطيع التخلي عنها ، مُتمسكٌ بها ليس فقط بيديّ ، إنما بجسدي كله وأشيائي العاطفية . .!

- ما أفهمه منك أنّكما لن تنهيا هذه العلاقة . .؟ وماذا عن الوعدِ الذي وعدتني إياه؟

- أنا لم أعدكِ ، أنا قلت لكِ إن شاء لله ، وإن شاء الربّ لهذا الفراق أن يكون . . فسيكون رغماً عني .

- اسمعني جيداً . . أنت الآن تكذب عليّ وتُغير كلامك معي ولن أسكت ، فوالله إن لم تقطع علاقتك بها فسيحدث شيء تندم طيلة عمرك عليه ، أنت لو كنتَ تُحبها ستمنع نفسك عنها حتى لا يحدث لها مكروه ، ولكن يبدو لي أنّك لا تحبها . .

- كلامٌ فارغ ما تقولينه . . هل تريدين إثباتاً لحبي . . حسناً

سأتقدم لها غداً ما رأيكِ؟

- أنت تعلم أنّ أبي لن يوافق!

- إذن . . أرجوكِ لا تقولي لي أنك لا تحبها . . فأنا أحبها ومستعد أن أفعل أي شيء لأجلها . . ولكن ما دُمتِ ستتسببين لها مكروهاً إن لم أقطع علاقتي بها فلن أقبل بذلك حتماً وسنفترق . . سأتحدث معها وستكون آخر محادثة بيننا ولن يتم بعدها شيءٌ آخر سوى الغياب . .

- حسناً أقدّر لك هذا . . وأتمنى لك أن يوفقك الله وتجد فتاة أخرى أجمل من أختي . . .

- أجمل . .؟ هه ، إنّكِ لن تفقهي في الحب ما دمتِ تبحثين عن الجمال ، ما بيننا ليس جمال الوجه . . بل القلب والروح ، وثمة بشر يموتون ولا يفقهون ذلك .

- ليس مهماً . . شكراً لك على كل شيء وأنت رجل طيب ، أتمنى لك التوفيق ، إلى اللقاء .

- شكراً لكِ أنتِ على «باقة الفراق» التي منحتني إياها مصحوبة بابتسامة عريضة . . إلى اللقاء!

آه يا رب . . ماذا فعلت بي بائعة الفراق القاسية . .؟ بليدة القلب والمشاعر ، لو أنها لا تعرف شيئاً عن الذي يدور بيننا لعشنا حياة أطول من الحب والخطر . . .

ثمة مكالمة هاتفية . . تدفع ثمنها بمشاعرك ، وتستنزف منكَ الكثير من الدم والدمع ، لا أعلم ماذا نفعل حين نشعر أنْ لا أحد يستطيع حل مصيبتنا ، ولكن وحده الله من يحل كل مصائبنا ، كن معنا يا الله!

**

أمسكُ هاتفي كي أهاتفها :

- مرحباً

- أهلاً . . إنّك لم تتصل عبثاً ، قل لي هل اتصلَتْ بك؟

- نعم اتصلت قبل قليل . .

- قل لي ماذا حدث بينكما؟
- طلبَتْ مني أن أنهي علاقتي بكِ، وإن لم أفعل لن تصمت وقد نندم حين لا نرضخ لكلامها.
وفي موجة بُكاء كبيرة.. تقول لي :
- لا عليك.. دعها تفعل ما تُريد فلن أتركك ولن أُكمل حياتي دونك، أنا أحبك أنت، تفهم ماذا يعني أحبك!
- استمعي إليّ جيداً، فالقلب مذبوح على آخره.. أنا أعلم أنكِ تحبينني وتعلمين كم أحبكِ.. ولكن ماذا نفعل ؟
وأدرك تماماً أننا سنفترق، ليس يوماً ما.. بل قريباً جداً وأنا مستاء لذلك كثيراً...
وأعلم أن كل واحدٍ منا سيسلك غير الطريق الذي كنا نمشيه معاً، ولا أخفيكِ.. ولا أستطيع إخفاء كل هذا الحزن...
وأتذكر جيداً عندما كنتِ تقولين لي «الحب ليس كل شيء» بل هُناك أولويات يجب أن نأخذها في عين العقل، أما الحب نأخذه في عين القلب.. أرأيتِ كم ضيّعَتْنا القلوب يا حبيبتي؟
وبودّي لو أننا نفترق وننسى بعضنا، حتى أرى نفسي في امرأة أخرى تُدعى «زوجة».. وليس الحب، وبالودّ أيضاً أن أرى أطفالي يلعبون حولي وأنا أخشى عليهم من «ضربة شمس» أو

أعين المارة حين تلتهمهم حسداً . . .

ولكن يا حبيبتي . .

لا أستطيع أن أرى أطفالاً من أمٍ غيركِ . . ولا أستطيع تخيّل وجوههم وهم لا يشبهونكِ ، ولا يقتدون بكِ أو يعلمون كم كنت أحبكِ ، وصارعت كل هذا العالم لأجل أن تكوني لي . .!

لا أتخيل كيف سأعيش بعدكِ . . مع امرأة أخرى ، وأنتِ في الضفة الأخرى من هذا العالم تعيشين في كنفِ رجلٍ آخر . . .

يا الله كم هي قاسية الحياة حين تسرقكِ مني وتهديكِ لرجلٍ آخر ، بكل برود ودون عناء . .

ولكن ماذا عليّ أن أفعل!

إنني أخشى عليكِ من أختكِ حتى لا تشيّ بكِ . .

أختكِ تلك التي لا تهتم ولا تفهم إلا في الموضة وآخر الأغاني التي لا تتعلق في الحب والبكاء والسهر !

أخافُ عليكِ من رجلٍ لا يهتمُ بأدقّ تفاصيل ثوبكِ ويومكِ!

ولا يسألكِ عن فيلمكِ المفضل ، ولا يُهدي لكِ قصيدة في ذكرى زواجكما حتى وإن كانت لشاعرٍ ما . .

ولا يطمئن عليكِ وهو في سفره ولا يقول لكِ «تصبحين على خير» قبل نومكِ، وأخشى ألا يدرك مكنونكِ وبعثرة قلبكِ حين يُداهمكِ الألم، ولا يقرأ كل الذين تودّين قوله من خلال عينيكِ، ولا حتى يشعر بضجيج صدركِ...

وكل خوفي أن يزوركِ طيفي على حين غرة فتبكين،

ليس من أجلي.. بل لأن ليس ثمة حضنٍ يحتويكِ كلما استقبلكِ الحزن في آخر الليل والبكاء!

- اصمت أرجوك.. لا أحتمل ما أسمعهُ منك، وأريدُ منكَ أمنيةً واحدة فقط، أرجوك حققها لي...

- سأفعل لو طلبتِ العمر كله لأهديتكِ إياه

- أريدُ أن أراك الآن أرجوك

- حسناً.. وسيكون هذا اللقاء الأخير ولن نلتقي مجدداً

- حسناً.. سنلتقي خلال نصف ساعة في الحديقة التي التقينا فيها أول مرة

- سأنتظركِ هناك..

أصل إلى المكان الذي كُنّا نلتقي فيه . .

أغمضُ عينيّ وأستدعي كل الذكريات التي جمَعَتْنا فأشعر بالحياة!

يا الله كيف سأواجهها الآنَ وأقول لها أننا سنفترق فراقاً أبدياً؟!

كيف سأملك هذا القلب القاسي ؟

هل ستتيح لنا الأيام فرصة اللقاء مرة أخرى؟

وهل سنعود وكل واحدٍ فينا يحمل بصدره قلباً جديداً؟

أم أن الحبّ سيبقى فينا كوشمٍ لا يزول!

وكيف سأنفرد في الحياة وأنا غريبٌ وحيد!

هل ستكون حكايتنا خراباً بعد عَمَار !

أيّ غربة أكثر من أن تكون حياتنا فارغة من أولئك الذين نحبهم؟

وأنا في نوبة تساؤلاتي أسمع وقع أقدام ، أرفعُ رأسي فأراها ، هذه هَيَ لقد وصلت . . . .

دون أي مُقدمات تقول لي :

- هل أنت جاد أننا سنفترق؟

- أليسَ من العدل أن تلقي السلام وتسأليني عن حالي؟
- أرجوك كفّ عن العتب وقل لي هل أنت جاد حقاً؟
- لستُ جاداً ولا أريدُ لهذا الفُراق أن يكون ، ولكن ماذا أفعل ؟
- لا تستمع إلى كلامها وكن معي أنا أحتاجُ إليك
- صدقيني أريدُ ذلك أكثر منكِ ولكن لا أريد أن أسبب لكِ الأذى ، ولا أودّ أن تسبب لكِ أيضاً مشكلة وقد تُخبر أباكِ فتكون المشكلة أكبر ، لو أنني لا أحبكِ لما اهتمَمْتُ لأمركِ ولكنني أحبكِ وأخافُ أن تُعرّضكِ لمشاكل كبيرة ، ومنذُ الآن سنكون مُجرد عابرَي طريق!

تجهشُ بالبُكاء وتصرخ دون أن تهتم لأي شيء آخر ، وتقول :
- أرجوك لا تتركني ، فأنا والله أحبك ولا أستطيع إيجاد مخرج منك ، حاولتُ كثير ألا أعتاد عليك ولكن لم أستطع ذلك . . .
- وهل تظنين أنّكِ هُنا لكي أختبر حبكِ لي؟ كلانا يعلم أننا لا نستطيع أن نترك بعضنا ، ولكن قولي لي ماذا أفعل؟ إنّكِ لا تملكين القوة الكافية كي تقفي في وجوههم وتُدافعي عن حبكِ ، ولا نستطيع أن نبقى معاً وقتاً أطول لأننا لا نعرف إلى أين سنصل معاً وأين نتوقف ، أنا مُستعد لكل شيءٍ وأنتِ

تعلمين ذلك ، ولكنكِ ضعيفة حين يتعلق الأمر في أن تخبريهِم بأنّكِ تحبينني وتودين أن تكوني معي!

- قل لي ماذا أفعل؟ هل تظن أنهُ من السهل أن أقول لأبي عنك؟

- لا أقصد ذلك ، ولكن تعلمين جيداً أنني لو تقدمتُ لكِ سيرفضون ذلك ، ماذا أفعل بهذه العقول الحجرية . .؟ وليس ثمة شيءٍ في يدي ، وها أنا بكل ما أملك مستعدٌ لأفعل أيّ شيء فقط لأكون إلى جانبكِ!

- حسناً لا يهمني أي شيء آخر ، ابقَ معي ودائماً هُنالك أمل ، ربما تتغير أفكارهم ويرضخون للواقع ونكون معاً كما نُريد ، هل تدرك ماذا يعني أن نكون معاً!؟

- أكثر من نصف عقدٍ يا حبيبتي وأنا على قيد الأمل ، ولم أتخلَّ عنكِ قط ، واستمرار علاقتنا لن يجدي نفعاً ، وسيسبب لكِ مُصيبة مع أختكِ وأرى أن يكون هذا اللقاء آخر ما بيننا ، وصدقيني إن كنتِ مكتوبة لي سيمنحني إياكِ الله ولن تقف كل جيوش العالم بيننا!

- آخر لقاء؟ بربك هل جُننت!

- بل زدتُ تعقلاً فقط لأجلكِ . . لأمنحكِ حياة تستحقينها

- لا أريد حياةً خاوية منك . . أرجوك لا تفعل ذلك

- بالودّ لو أنني أبقى معكِ لآخر العمر ولكن الفراق سيكون خيراً لكِ وسيبعدكِ عن المسائَلات التي ستوجهها لكِ أختكِ ، لذلك لن أتراجع!

تَفرد ذراعيها وتقول لي :

- امنحني حضناً أخيراً ليخفف عليّ وطأة ما سأواجهه بعدك .

أهزُ رأسي إيحاءً بالرفض!

تتسع حدقة عينيها ، مصدومةً لأنني رفضتُ ذلك ، تقول لي :

- كم أنت قاسي القلب . . أنا أعرف أنّك لا تحبني ولن يُسامحك قلبي ما حييت . . .

ثم تذهب وهي تحمل معها كامل بُكاءها . .

لا أتذكر إلا أنني بكيتُ كما لو أنني أبكي للمرةِ الأولى . . وأنا أراها تذهبُ غريبةً وحيدةً لا أحد معها . .!

حين جئتِ تضميني إلى صدركِ ابتعدتُ

ليس كرهاً فيكِ . .

بل لأن . . .

وحدهم العشّاق يتعانقون ؛

أما نحن مُجرد غريبين . .!

إلى امرأة نائمة حسب توقيت الظنّ والحنين . .

إلى امرأة علّمَتْني أنّ الحب ندبة في الذاكرة قبل أن تكون في القلب . . .

بالود لو أنني طفلُ فأهرب من العالم وأنامُ في صدركِ

حتى لا يوبخني أحد . . أو يقيم عليّ الحد !

لأنني أؤمن أنّكِ لستِ لي . .

لذلك أنا أتمنى أن أكبر وأنا بين جنبَيكِ

أتمنى لو أنّكِ تضـمـيني إليكِ إلى حـدّ الشـهـقـة والاخـتناق ،

وأموت إلى جانبكِ . . .

أنا أثق أنّكِ تسـألين نفـسكِ كـيف أسـتطيع أن أعـيش من

غيركِ . . .

صـدقيني . . أنا أموت غبناً وأنا أعـيش وسط أُناس لا تربطني

معهم شـجـرة الحب ، وأدعو الله في كل سـجدةٍ أن يجـمعني

بكِ!

ها أنا الآن أكتبُ لكِ كلّ هذا ؛

ولا أحلم بكِ وحدكِ فقط . .

بل أحلم بكل أولئك الأطفـال الذين سـيـرزقنا الله بهم وهم

ينامون بيننا على سريرٍ واحدٍ أحلّه الله لنا . .

أحبكِ . . .

للبكاء بقية . .

حُب

في زمن الجاهلية

صورتكِ كُلما نظرتُ إِليها قلتُ
((اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر))
ألم أخبركِ أن النظر إلى وجهكِ
تحليقٌ إلى عالم آخر
ومشقةٌ ودروبٌ كثيرةٌ وأوطانُ

فهد العودة
FAHAD ALODAH
FALODAH



تصميم :



